عَلاَّمة الشام

الأُستاذ أحمد راتب النَّفَّاخ

(١٣٤٦/ ١٤١٢هـ- ١٩٢٧/ ١٩٩٢م)

د. حسين جمعة

١- رسم الفقيد:

فقدنا بموت المرحوم علاَّمة بلاد الشام الأستاذ الشيخ أبي عبد الله أحمد راتب النَّفَّاخ قلّ نظيره من أهل العربية وعلومها، والأدب وفنونه؛ والفكر وشذراته؛ والقرآن الكريم وقراءاته، والحديث الشريف وروايته، والثقافة وآفاقها...

فقد فاجأه الموت - على غير موعد - بعد مكابدة عظيمة مع الحياة التي أوقعته في أزمات صحيَّة، ورمته اجتماعيًّا وثقافيًّا بأقوام كانوا مدعاة لتوتر مستمر، بل سببًا للاضطراب النفسي الدائم... فغادرنا قبل الأوان في زمن ما نزال نحتاج فيه إليه وذلك صباح يوم الجمعة (١١/ ٨/ ١٤١٢هـ - ١٤/٢/١٩٩٢م) بعد أن أدَّى صلاة الصبح ثم بدأ التلاوة؛ فقرأ ما شاء الله له أن يقرأ من سورة البقرة. ولكن الصوت المرتل لم يلبث أن خفَت وسكت، وهُرع الأهل إلى الطبيب. وبذل الأطباء ما بذلوا فما نجحوا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا فأسلم الروح إلى بارئها راضيًا مرضيًّا. رحمه الله الرحمة الواسعة وأسكنه فسيح جناته»[١].

وشيَّعته أحداق العيون المغرورقة بالدمع؛ وودَّعه الأهل والخلان والأصحاب والأقرباء والجيران، وأهل الحي والطلبة الذين أحبوه، والجموع الغفيرة من ذوي العلم

وشُداته؛ ومن أهل النظر والفكر والأدب ورواته... شيَّعوه جميعهم إلى مقره الأخير في مجنَّة يحتضنها جبل قاسيون الأشم، في غُرة مدن الدنيا دمشق الفيحاء التي أحبها الشيخ وأحبته... وكان لسان حالهم يقول: رحل الشيخ الجليل صاحب القلب الطيب الصافي النقي الذي ما حمل غِلاًّ يومًا؛ رحل الأستاذ الفاضل الذي خصَّه القاصي والداني بالحفاوة والمهابة والتقدير؛ رحل علاَّمة الشام الذي ملأ الدنيا بوجوده علمًا وشرفًا؛ لقد دعته الآخرة فلبّاها؛ وصدق فيه ما يصدق على جميع البشر، وما قاله كعب ابن زهير(٢):

كلُّ ابنِ أنثى وإنْ طالَتْ سلامتُهُ يومًا على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

وقَع القضاء – ولا مهرب لإنسان منه – وحثَت الأيدي التراب على جسد أبي عبد الله المكفَّن بالنبل والطهارة... وغاب الوجه الأبيض الذي زانه التقى والهدى؛ بعد أن كان يلقاك بالمهابة والوقار، انطفأ نور عينيه الزرقاوين اللامعتين حدة وذكاءً ونشاطًا، والمفعمتين بالرجولة والدفء، واللتين يعلوهما جبهة شامخة شموخ العربية وعلومها.

وإذا كانت شاهدة القبر التي انتصبت فوق ثراك الطاهر حاملة اسمك الميمون (أحمد) فما نسي طلبتك ومريدوك، وأصدقاؤك الأوفياء رسم قامتك المعتدلة التي انتصبت في جسم مال إلى النُّحول في أخريات أيامك.

لقد تركوه وحيدًا مفردًا؛ وقد خلَّف فينا ولده الصغير عبد الله الذي يدرج في مرابع الطفولة وحيدًا، وكان قد حدب عليه عطفًا ورعاية حتى غدا رجلاً في إهاب البراءة، يقرأ من الأسفار ما يعجز الكبار عن مجاراته فيها ونرجو له الله أن يكون وريث عِلْم أبيه في قابل الأيام.

قد يكون التراب حال بيننا وبينك؛ إذ أسدل على جثمانك الطاهر

ستارة كثيفة؛ ولكنه لم يحل بيننا وبين طيفك الذي يشمخ حاضرًا في كل مجلس علم؛ فيحضر حضور الزمن الأبدي، ويتردد اسمك وعلمك في الأفواه وهي تفخر بك... فأنت ملء الأفواه والأسماع؛ إذ طالما فتحت لنا نوافذ الفكر، وتصيَّدت شذرات الأفهام التي لم يقدر عليها إلا أنت... كنت الملجأ والعاصم لنا من القلق والاضطراب والشك والخوف، والتردد والضحالة الثقافية، فإذا حزنَّا عليك وبكينا دمًا حُقَّ ذلك فيك، فقد كان فَقْدك عظيمًا؛ كزلزال عنيف، فصدق فيك قول عبدة بن الطبيب في قيس بن عاصم(٣):

فلم يكُ قيس هلكُهُ هُلْكُ واحدٍ ولكنه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

فالمصاب بك مصاب الأمة؛ ولكن عزاءها أنك خلَّفت فيها سيرة عطرة عظيمة، وتراثًا من الخُلُق والعلم لا تبلى جدته على مر الدهر.

وهنا يفرض عليَّ المقام أيُّها الشيخ الحاضر فينا أبدًا أن أعرض لبعض قبسات من إنسانيتك النبيلة، ثم أعرض لشيء من سيرتك العلمية ومكانتك الفكرية والأدبية... فأثرك باق لا يزول، ومنهجك سنن علمي وضَّاء ماض في الأجيال مُذ أن أصبحتَ مثالاً للعالم الزاهد العصامي المخلص. وكأن الله ما خلقك إلا لذلك مُذ أبصرْتَ النور بدمشق في (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م) ونشأت في كنف أسرة كريمة تقية تعود بأصولها إلى إحدى أُسَر حوران، ولكنها انتقلت إلى بعلبك؛ ثم رجعت أدراجها فأقامت بدمشق قبل أكثر من مئتي عام ... منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي على الأقل.

٢– قبس من إنسانيته:

إذا كان لي شرف الكتابة عن الفقيد الأستاذ الشيخ الجليل – رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه – وإذا كانت الكتابة نقشًا في الخلود على جدار الزمن،

فما خلودها إلا بخلود ما تحلّى به من كريم الصفات، ودلائل الخيرات؛ وأريحية المروءة والعطاء، وثبات على المبدأ وإعزاز للقيم والمبادئ في وقت غدت فيه المكانة العلمية والاجتماعية والثقافية مهزوزة مأزومة... صارت العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، وطفقت التقلصات الفكرية عند دعاة العلم والثقافة تتقدم في الوسط المحيط على أنها لون من زناد فكر وقَّاد وإبداع عقل صناع.

من أين أبدأ – يا سيدي – في سرد خصالك؛ فالقلم ينزف دمًا وحسرة على فراقك؛ فمداده دمع؛ وخطه على الورق أنين وآهات... إنه محزون كصاحبه؛ وكلاهما يعيش أزمة ثقافية ونفسية بعد رحيلك ؟!!

كنا – يا سيدي – إذا ادلهمَّ الخَطْب، وأطبقت الظلمة على النفوس تدنينا من نفسك حتى نستشعر الحياء من ذواتنا المتضخمة أمام عظمة تواضعك وسموّ روحك... فتهدِّئ روعنا بوجهك الذي يطفح بالطمأنينة، ويتهلَّل بالمودة على ما توحي به قسماته الخارجية من شدة وحدَّة وقوة، لكنها ما تحمل إلا الحزم والإرادة، واللِّين والرِّقة.

عرفناه بصفاته النبيلة التي ارتفعت على كل الصفات وقد نذر نفسه وروحه للعلم وطلبته؛ لم يبخل يومًا بالنصيحة أو الإرشاد، فكان «النموذج الإنساني الساطع الذي وفَّق بين قوله وفعله وحقَّق في نفسه مَثَله: أعرض عن مغريات الدنيا، وارتفع عنها. لم يخلبه المال، فعاش في بيت بسيط جدًا في حدود الكفاية التي تصون ماء الوجه. لم يخلّف لأهله إلا هذا البيت الذي كان أبوه خَلَّفه له ، وإلا الكتب التي صحبها، ونذر حياته لها. لم يسعَ إلى منصب، ولم تفتنه المظاهر؛ ولم يقف بباب أحد. وربما جاءه أصحاب الحاجات فقضاها لهم ونسي حاجة نفسه وأهله»(٤).

«كانت البطولة تستثيره؛ فإذا اغتيلت أو أُكرهت بدت له أشد استثارة. من هنا يبلغ عطفه على الفقراء والبائسين وأصحاب الحاجات حدًا يغفل فيه - كما يفعل المثاليون؛ غالبًا - عن حقائق الواقع». يحكي الدكتور الأشتر قصةً وقعت لهما ذات يوم فيقول: «خرجت في صحبته يومًا من باب الجامعة الكبير في البرامكة، واجتزنا الشارع إلى الرصيف المقابل. فلم أَلحظ صبيًّا مستلقيًا عليه يسأل الناس - وقد مدَّ رجلاً تكسوها بقع الدم - ولكن الأستاذ النفاخ لم يشغله عن الصبي شيء. رأيته يندفع إليه؛ وينحني ويسأله عن حاله؛ فشكا إليه الصبي بلهجة منكسرة، ذاب لها قلبه، الفقر والعجز عن دخول المشفى؛ فما أسرع ما ضَرب بيده إلى جيبه فأعطاه؛ ثم لم يكتف؛ فاستوقف سيَّارة أوصى سائقها بحمل الصبي إلى المشفى ودفع له أجره»(٥).

كان لا يبالي في سبيل حق العلم والوفاء للتراث وشرف العربية وأئمتها « أَكَثُرَ محبّوه أم شانئوه. فلعلك ترى أستاذًا له قديرًا، أو صديقًا له أثيرًا، أو محبًّا مريدًا قد وَهَت العلائق بينهم وبينه. لم يتحملوا صدعه بالحق الذي يراه، ولم يكن عندهم من الحُجَّة ما يدفعون به قوله؛ فكانوا في مجالسهم يتحدثون عن شدته عليهم، وينسون شدته هو على نفسه. هذه الشدة التي كانت تحول بينه وبين أن يكتب إلا ما يراه صوابًا، بل مَحْض الصواب، ثم لا يبالي من بَعْدُ أَخسر صديقًا أم كسب عدوًّا... فلم يسعَ إلى لقب، ولا طمع في منصب، ولا استخفته شهرة، ولا طرِب لِمديح، إنه زهد حتى في مظاهر الحياة؛ فاطَّرح التكلف جملة؛ واستراح من أعبائه. فكنت تراه يستقبل زائريه على أيِّ هيئة اتفقت له. حتى بيته بقي بعد زواجه المتأخر مثال بيت العالم الزاهد»(٦).

وكان - رحمه الله - أقرب إلى الحق من أي رجل آخر؛ فإذا رأى رأيًا

وتبيَّن له وجه الخطأ فيه رجع عنه معترفًا بذلك على الملأ. فقد حدثني أستاذي الدكتور إحسان النُّص مرة بعد مرة عن ذلك، وآخر حديث جرى بيننا كان يوم الثلاثاء (٤/ ٦/ ٢٠٠٢م) في مكتبه بمجمع اللغة العربية... وإذا كنت وبعض زملائي قد عاينًّا منه ذلك في مناسبات كثيرة – رحمه الله – فإنني أثبت ما أورده في تعليق له على تحقيق (رسالة الغفران) للدكتورة عائشة عبد الرحمن؛ ولاسيما تعليقه على ضبط لفظ (غبًّا) في بيت النابغة[٧]:

كما لقيَتْ ذاتُ الصَّفَا من خَليلها   وكانَتْ تَدِيه المالَ غِبًّا وظاهِرَهْ

فقال: «وكانت المحققة ضَبطت (غبًّا) في الطبعة الأولى بكسر الغَين، وذهبتُ في مقالي – اعتمادًا على ما ورد في الديوان ص (٦٢) (طبعة بيروت) – إلى أنها بضمّ الغَيْن؛ ومعناها ما غمض من الأرض. وهذا وَهْم وقعتُ فيه؛ وتابعتني المحققة في طبعتها الجديدة، والصواب أنها بكسر الغين؛ والغِبُّ أن ترعى الإبل يومًا وتَرِد من الغد، والظاهرة أن ترد كل يوم نِصْف النَهار. وقد وردت الكلمتان في حكاية المعري نفسه للقصة ص (٣٥٦)، وشرحتهما المحققة ثمة شرحًا صحيحًا؛ إلا أنها في شرح بيت النابغة تابعتني في الوهم الذي انسقت إليه»[٨].

ومن ثم فالشيخ الجليل على عظمة معارفه لا يبخل بما يراه، ولا يزدهيه ذلك؛ فقد حقَّق له علمه ومروءته الصدق مع الذات ومع الآخرين؛ لم يتطاول عليهم يومًا؛ وإذا أخطأ سارع إلى الاعتراف بما كان منه؛ وإذا فاته أمر نبَّه على غفلته كما قال: « فأحببت أن أعرض وجهة نظري فيما توقفت فيه على العاملين في هذا المضمار؛ ليدلي بوجهة نظره من عنَّ له رأي فيه... وأضفت إلى هذه النقاط نقاطًا لم أفطن لها فيما مضى»[٩].

وإذا أدام النظر في مسألة ما، ولم يهتد إلى رأي فاصل فيها أسرع إلى الإقرار

بعجزه، ثم يعرض أمره على صفحات الورق لعل ذوي الرأي من الباحثين يهتدون إلى رأي فيها، فيقول: « وقد اضطرني إلى ذلك محاولة الكشف عن رجال من رجال الرواية؛ منهم من خفيت حاله، ومنهم من لم أُصب له ترجمة»[١٠].

«والأستاذ راتب إلى ذلك كله وفيٌّ لأساتذته، حفيٌّ بهم، ذاكر لفضلهم متأسٍّ بهم، وطالما سمعناه يثني على علاَّمة العصر الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي والأستاذ الشاعر محمد البزم، والعالم الناقد المعروف أمجد الطرابلسي؛ أعضاء مجمعنا؛ والعلاَّمة الراوية محمود شاكر، والأديب الكبير شوقي ضيْف»[١١].

فهو شديد الاعتداد والثقة بزملاء له آثرهم وأثنى عليهم وعلى كل من وجد فيه العلم والحق مثل السيد أحمد صقر، وأحمد محمد شاكر؛ وعبد الرحمن الحاج صالح، ونجيب البهبيتي وصبحي الصالح ومحمود الغول وحاتم الضامن وحمد الجاسر وإحسان عباس وعبد الكريم زهور عدي وعبد الهادي هاشم وشاكر الفحام وعبد الكريم اليافي وإحسان النُّص وعبد الكريم الأشتر وغيرهم.

وكذا يذكره أصدقاؤه وأهل الحق بالفضل، وطالما سمعت منهم الثناء عليه؛ والقرين بالقرين مقتد، وها هو ذا الدكتور شاكر يقول: « عرفته في أواخر الخمسينيّات، وأنست بصحبته، وامتدت صداقتنا حتى قضى الله قضاءه، فعرفت فيه الصديق المخلص، الكريم الخلق، الطيب القلب، الصادق الود؛ يسارع في الخيرات، قد نصب نفسه لتلبية قاصديه، ومساعدة طلابه».

ويتابع الدكتور شاكر وصفه لأخلاق الأستاذ: «كان – رحمه الله – على خُلق كريم، وفيًّا لأصدقائه؛ محبًّا لإخوانه، وكان شديد التعلق بالمثل العليا، والقيم الخلقية، قد أخذ نفسه بها أخذًا شديدًا. وكان صريحًا صُلبًا في الحق، لم يعرف الهوادة، ولم يرض عن المصانَعَة... كان يحس أنه غريب في دنياه، فهو يحمل

همومه، وتَبْهظه أحزانه، ولا يكاد يرى من يبوح له بها. لقد أفردته أخلاقه ومُثُله، وباعدت بينه وبين ما حوله. وكنت حين أراه، وأُحس بما يعتلج في نفسه أُردّد هامسًا قول رسول الله ﷺ: «طوبى للغرباء»(١٢).

ونكتفي بهذه الملامح من قبس إنسانيته الرفيعة، وخلقه النبوي؛ الذي أخذ به نفسه؛ وكأنه يتأسى بخلق رسول الله ﷺ في أهله وبيته، وفي أسرته. فقد استقام على الحق والعدل في كل أمر من أمور حياته؛ فإذا ذُكر الإنسان الحر النزيه الشريف التقي النقي كان صورته؛ وإذا ذُكرت العفة والطهارة كان صميمها؛ وإذا ذُكر الصدق والجد والتفاني في العمل كان عنوانه... جمع المروءة ووعاها.

فالصفحات القليلة السابقة أعجز من أن تحيط بالحديث عن مُثُله وقيمه، ولعل ما يأتي من البحث يبيِّن جملة من فضائله وشيمه الأخرى... علمًا بأن الحديث عن مثله وطباعه يحتاج إلى المزيد من الصفحات. فهو موضوع قائم بذاته.

٣- سيرته العلمية:

إن من حق العلم وتقدير أهله في كل زمان ومكان أن تعترف الأجيال بصنيع المبدعين وتفرُّدهم، فالأستاذ - رحمه الله - وُلد لأسرة من أهل الخير والصلاح؛ وفدت إلى دمشق الفيحاء من بعلبك مع مطلع القرن التاسع عشر، وكانت في الأصل تسكن حوران، وانتقلت لأمر ما إلى بعلبك.

وقد نشأ في كنفها ودرج في مرابع الطفولة، فإذا دخل في السن الرابعة وجّهه أبوه إلى (الكتَّاب) قُرْب مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي؛ ثم التحق بمدرسة (الصالحية الابتدائية) في سن السادسة، وقد بدأت ملامح النجابة

تظهر عليه في هذا المرحلة. ومن ثم غدا أحد طلاب ثانوية (التجهيز) واسمها اليوم (جودة الهاشمي)، وأصبح واحدًا من أمهر المواهب السنية؛ التي توسَّمها فيه أساتذته؛ ولاسيما أستاذه آنذاك الشاعر محمد البزم؛ إذ رأى فيه النبوغ والتميُّز، وفاخر به، فما خيَّب ظنّه؛ ثم شهد له الأساتذة جميعًا بالعبقرية، أينما حلَّ وذهب، وكذلك عرفه زملاؤه.

وتجلَّت شخصية التلميذ الفذّ في المعهد العالي للمعلمين. فتخرّج بعد أربع سنوات في قسم اللغة العربية لعام (١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م) بتفوق ملحوظ على أقرانه.

ويُعد الأستاذ الدكتور عادل العَوّا – رفيق صباه رحمه الله – من أحسن مَنْ عرفه في هذه المرحلة من الدراسة الجامعية فيصفه بقوله: «وقد بان ولعه؛ بل شغفه باللغة العربية أجلى بيان حين كاد يعزف عن النطق بلغة أجنبية، وكأن لغة الإنسان الحق هي اللغة القرآنية، لغة الصدق واللسان، فترسله سيلاً متدفقًا بصوتك الجَهْوري الذي زيّنه فَصاحةُ وبلاغة المبين»[١٣].

ثم التحق في العام الدراسي (١٩٥٠-١٩٥١م) بكلية التربية في جامعة دمشق (الجامعة السورية آنذاك) فحاز بجدارة شهادة أهلية التعليم الثانوي سنة (١٩٥١م) المعروفة الآن بـ(دبلوم التأهيل التربوي).

وقد توجَّه في هذه السنة (١٣٧١هـ/١٩٥١م) ميمِّمًا وجهه إلى مواطن جذوره الأولى؛ إلى حوران ومدينتها (درعا) ليكون أحد مدرِّسي ثانوياتها مدة عامين. أعلن فيهما إخلاصه لأصوله، وظهرت فيه روح المربي الفاضل الغيور على الأجيال؛ فرسم لهم صورة مثلى للقدوة الحسنة؛ وللحارس الأمين على تراث الأمة، والمحافظ على لغته الشريفة؛ ولاسيما حين تصدَّى لمناقشة أول طبعة لرسالة الغفران (١٩٥٠م) بتحقيق د. عائشة عبد الرحمن، فأرسل حين

اطلع عليها مقالة يكشف فيها عن الأخطاء التي ندَّت من الباحثة بعد أن أثنى على جهدها، وتوَّجها بمقالة إلى مجلة (الكتاب) المصرية؛ التي نشرتها بدورها في (مج١٠- ج٦) من عام (١٩٥١م). وإذا كانت أُسْرة المجلة قد تصرَّفت في المقالة على نحو ما؛ فإن ما جاء فيها قد أفادت منه المحققة الباحثة في الطبعة الثانية.(١٤)

ومن ثم استقبله قسم اللغة العربية بجامعة دمشق معيدًا لديه (١٣٧٣/ ١٣٧٥هـ -١٩٥٣-١٩٥٥م) ثم أوفده إلى جامعة القاهرة للدراسات العليا، فاستحق فيها درجة الماجستير بمرتبة الشرف سنة (١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م). بموضوع دراسة عن الشاعر ابن الدُّمَيْنة وتحقيق شعره. وقد نُشر تحقيق الديوان سنة (١٩٥٩م).

واستقرت به رحلة العلم في القاهرة على يد الأستاذ العلاَّمة الدكتور شوقي ضيف – رحمه الله – الذي أشرف عليه مرة أخرى لنيل درجة الدكتوراه. ولما كانت همة الشيخ عظيمة وحبه للعربية أعظم؛ ورأى أن أفضل ما يُحقق له رغبته الدراسات القرآنية لأنها أُمُّ الدراسات في العربية اختار موضوعًا في القراءات القرآنية لنيل تلك الدرجة، وانغمس في إعدادها حتى نجز أكثرها، ولكنه بدا له ما بدا؛ فطوى ذلك في سره – إذ شاء الله له ألا يحوزها – فعزم جازمًا على العودة إلى دمشق. ثم حط به المقام فيها سنة (١٣٨١هـ/١٩٦٢م) وانضم إلى أسرة قسم اللغة العربية بجامعة دمشق ليقضي فيه سبعة عشر عامًا حتى سنة (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

وقبل أن يجذبني الحديث عن هذه المرحلة وما بعدها فإن العقل يستفزه السؤال المحيّر والملغز حول عزوفه عن اللقب العلمي، وإحجامه عنه بهذا

الشكل، في حين طمح إليه – ومازال يطمح – كل من هو أدنى منه بكثير، وهو الذي نشر عددًا من البحوث العلمية العالية في تلك المرحلة؛ ومن أمثلتها (القصيدة الصورية) – وقد نُشرت في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج٢– ج١– ١٩٥٦م)– وتعليقه المشهور الثاني على الطبعة الثانية لرسالة الغفران (١٩٥٧م) الذي نُشر فورًا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج٣٢– ج٤– ١٩٥٧م) و(مج٣٣– ج١– ١٩٥٨م) في باب التعريف والنقد.

أما لقاؤه أهل العلم والمعرفة في القاهرة فقد كان سمته المفضل؛ إذ جمعته صداقة لا ينحَلّ عراها مع العلاَّمة محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، رحمهما الله وغيرهما فضلاً عن شيخه وشيخ العلماء الجهبذ النّحرير عبد العزيز الميمني الراجكوتي الذي أجازه مرتين في رواية الحديث الشريف من الكتب الستة، وموطأ الإمام مالك، وسنن الدارمي، وهي إجازة موصولة بسند متصل برجال الحديث الثقات حتى تنتهي إلى الإمام المحدّث أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، وهي آخر إجازة عن القدماء.

وعلاَّمة العصر الميمني (١٣٠٦ – ١٣٩٨هـ/ ١٨٨٨– ١٩٧٨م) أجازه بالرواية عنه في القاهرة المحروسة (منتصف صفر: ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، وبخط يده، وكان الميمني قد زار دمشق الفيحاء وكتب له إجازة أخرى. وفي إحداهما يقول: «لقيت الطالب الراغب والشادي الأديب أحمد راتب النفاخ بالقاهرة المحروسة وبمدينة دمشق الفيحاء... إني أجزت له أن يروي عني الكتب الستة الأمهات، وموطأ مالك، وسنن الدارمي، وسنن الدارقطني، وبلوغ المرام، كما أجازني به شيخي ... حسين بن محسن بمدينة دهلي سنة ١٣٢٦هـ»[١٥].

وإذا كان الشيخ قد زهد في الألقاب، وعزف عنها لأنه أخذ نفسه

بالإتقان، والكمال؛ فرأى أنه دون ذلك؛ كما يخبرنا عنه الأستاذ الفاضل الدكتور عادل العوا – رحمه الله – صديق عمره الذي يتابع تفسيره لهذه المسألة قائلاً فيه: «وكأنك امتثلت لحديث رسول الله ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) وكأنك لم ترْض بمقولة الفلاسفة المعاصرين: إن الحياة مشروع وجود ناقص لا يتم إلا بالموت»(١٦).

وهذا أيضًا ما شهد به الأساتذة الأخيار ممن عرفوه. وآخرها شهادة أستاذنا الدكتور إحسان النّص – أطال الله عمره – في لقائي معه – وقد كان الشيخ مدار حديثنا – إذ قال: « لقد كان – رحمه الله – شديدًا على نفسه، أخذها بالكمال – والكمال لله وحده – فأحجم عن اللقب، وطالما حمَّلني الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رسالة للأستاذ ودعاه غَير مرة لمناقشة ما لديه من رسالته في القراءات القرآنية، ولكنه لم يستجب. كان – رحمه الله – يشكر ثقة الدكتور شوقي به؛ ويثني على رغبة أصدقائه؛ ولكنه –كما يبدو – بعُدت به السنون عن نيل اللقب العلمي؛ ولم يكن هذا استصغارًا لشأن الدرجة أو أصحابها..»(١٧).

ولعلي أرى في صحبتي المتواضعة لشيخنا أنَّه أخذ نفسه بالكمال والمثال الأرحب للعلم، وحب الإتقان للشيء، وهذا لا مراء فيه، ولكنه في الوقت نفسه كان ذلك الرجل التقي النقي الزاهد الصالح الذي أدرك حقيقة ما كان الأصمعي قد سبقه إليه من قبل، فلما تجلَّى عظمة ما يقوم عليه علم القراءات من مسائل وقضايا، وخشي أن يقع في حَرَج ما في وجه من وجوه القول نأى بجانبه عنه؛ تقىً وورعًا؛ كما فعل الأصمعي، واكتفى من العلوم بعلم العربية وآدابها، وكان عزاؤه عن اللقب العلمي ما انتهى إليه من الإجازة برواية كتب الحديث عن شيخه علاَّمة العصر، وما يجده في طلبته الذين منحهم اللقب نفسه على مدرَّج شفيق جبري من

كلية الآداب بجامعة دمشق، وفي مريديه الذين يتحلَّقون حوله.

وإذا كانت رحلته العلمية قد بدأت في مطلع الخمسينيّات بمدينة (درعا) جنوبيّ سورية فإنها استقرت إلى أمد محدود في جامعة دمشق بين عامي (١٩٦٢- ١٩٧٩م)- ثم انتهى به المقام إلى مجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية بدمشق) عضوًا عاملاً بالمرسوم التشريعي للسيد رئيس الجمهورية ذي الرقم (٢٧٩٨) تاريخ (٣٠/ ١٢/ ١٩٧٦م) المتضمن قرار مجلس المجمع في جلسته الأولى بتاريخ (٢/ ٩/ ١٩٧٦م)[١٨].

ومن ثم أُقيم له حفل استقبال سنة (١٩٧٧م)؛ وفي عمله في المجمع كان أحد المبرِّزين علمًا وفكرًا ونظرًا ومنهجًا ودقة في الاجتهاد، وقد أخذته الغَيْرة عليه والعمل على تطويره، كما كان عهدنا به مع اللغة والتراث، فمنحه الجهد والوقت والصحة حتى سعد المجمع من بعد بتسميته رئيس المقررين فيه (١٩٧٩- ١٩٩٢م). وكان له القدح المعلَّى في أعمال لجنة الأصول ولجنة المجلة والمطبوعات. وظل هذا دأبه وهو يناقش «بكل الجد والحيوية مشروع خطة جديدة ترسم وجوه نشاط المجمع في المستقبل. وقد شهد الجلسة الأخيرة له في يوم الأربعاء (١٢/ ٢/ ١٩٩٢م) ومن ثم تواعد مع صديق العمر أستاذنا العلاَّمة الدكتور شاكر الفحّام – مدَّ الله في عمره وأسبغ عليه ثوب العافية – على اللقاء يوم الأحد للاجتماع في لجنة المجلة والمطبوعات، لكن القدر لم يمهله للوفاء باللقاء، فجاء الأجل المحتوم ﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لاَ يَستَأخِرُون سَاعَةً وَلاَ يَستَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف ٧/ ٣٤] وانتهت رحلة خمسة وستين عامًا كان فيها الشيخُ الفارسَ المجلي والعالم الفذ[١٩].

ولذلك كله يشهد الأستاذ العالم الدكتور شاكر الفحام بأن « من أبرز صفاته أنه كان معلمًا، بالمعنى الرفيع للكلمة. فُطر على القراءة والمطالعة، وأحب

العربية وعلومها الحبَّ الجمَّ، إنها له لسان وهوية وحياة؛ وقد عبَّر عما يحسه من ذلك بقوله: «آليت على نفسي ألا أعيش إلا لها، ولكتابها العربي المبين»[٢٠].

ومن هنا كان يلتزم العربية المبينة في حديثه، ويبين عن علم واسع وثقافة متنوعة استوعبها ذهن وقَّاد وحافظة فولاذية، ولم نشعر أنا وغَير واحد من أصدقائي إلا أنه أحد أولئك الأئمة الكبار الأثبات، والعلماء الأخيار من القرن الثاني أوالثالث أو الرابع الهجريّ، إلا أن زمانه قد تأخر فَعاش بيننا. وكم كانت الأجيال من الطلبة والمريدين والأصدقاء وأهل العلم محظوظة به؛ بل الأمة كلها.

وفي ضوء ذلك كله أقول في نهاية هذه الفقرة ما قاله الصديق العزيز الدكتور محمد الدالي: «مازال الأستاذ يَنبوع عِلمٍ عِدٍّ، فمنه ما وعته صدور الخاصة من أصحابه وتلامذته، ومنه ما بثَّه فيما نشره، وفيما لم ينشره من النصوص، وفيما كتبه من مقالات، ومنه ما قيّده على الكتب التي حوتها مكتبته؛ وذهب بموته علم كثير، فعمل الأستاذ باق إلى يوم القيامة، لا ينقطع حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين»[٢١].

وهذا كله ينقلنا إلى الحديث عن مكانته الفكرية والعلمية.

٤– مكانته الفكرية والعلمية :

لعل استشراف مكانة علاَّمة بلاد الشام العلمية والأدبية واللغوية، بله الفكرية كلها يكاد يكون من المحال، فقد كان – ومايزال – نسيج وحده. فقد انغمس في خدمة العربية وعلومها، والأدب وأجناسه وفنونه، وكان من كبار علماء القراءات القرآنية. انغمس في ذلك كله انغماس الصوفي الزاهد في ملذات الحياة ومتعها، لا نصيب له منها إلا خدمة التراث، وصحبة الكتاب، فيهما فنيت روحه؛ وبعشقهما تعلَّق حتى الثمالة، فلم تأخذه ظاهرة المقاهي الثقافية، ولا عادات ريادة النوادي، ولم

تستفزه شياطين الشهوة المادية والحسية من هذه الدنيا الفانية، فإذا ما بحثت عنه لن تجده إلا في أربعة أماكن: منزله وشداة العلم، وأصحاب الفكر يحيطون به، أو مكتبه في قسم اللغة العربية؛ أو مكتبه في مجمع اللغة العربية... وقد انكبَّ فيهما على كتاب يقرأ فيه، أو بحث يردد فيه النظر. أما المكان الأخير فهو البحث عن كل جديد في مكتبات دمشق؛ لأنه يرى أن الكتاب نافذته على الذات والمجتمع والتراث والثقافة والكون، وهذا ما يحكيه على مسامعنا الأستاذ إبراهيم الزيبق؛ فيقول: «ومرَّ شهران أو أكثر؛ وطال شوقي إلى الأستاذ ومجالسه، إلا أن الخوف كان يصدّني عن زيارته؛ حتى كان يوم رأيته فيه مصادفة في مكتبة. وما إن وقعت عيناه عليَّ حتى بادرني بالسلام؛ وقال لي متشوقًا: أين أنت ؟ لم أرك منذ زمن. كان في صوته ونظراته هذا الشوق الذي تحس حرارته في أعماق القلب، داريت خجلي؛ وقلت: سأزوركم الليلة؛ إن شاء الله»(٢٢).

أما الأستاذ المفكر عبد الهادي هاشم – رحمه الله – فيقول: «ما زرته في داره مرة إلا وجدت عنده زائرًا من كبار رجالات البحث والتحقيق المعروفين في الشرق والغرب؛ جاؤوا يستفتونه في قضية علمية؛ أو يطارحونه الحديث في مشكلة لغوية؛ يجدون عنده ما لا يجدون عند الكثيرين من المتخصصين المتمرسين»(٢٣).

ويقول الأستاذ الدكتور شاكر الفحام: «كان – رحمه الله – جبلاً راسخًا من جبال العلم؛ قد جعل الكتاب خدينه وأَنيسه، فلا تراه إلا قارئًا أو مُقْرِئًا» ثم يستشهد بعبارة للشيخ المفكر المرحوم عبد الهادي هاشم قالها في الأستاذ النفاخ: وقد أتقن «كثيرًا من العلوم التي عرفها السلف، أو استحدثها الخلف؛ وبذَّ الأقران في فنون منها، انتهت إليه الرياسة فيها في عصرنا هذا في بلدنا هذا: كالقراءات والنحو والبلاغة والعروض واللغة : فقهها وعلمها، وأصبح حجَّة فيها لا ينازعه منازع. هذا

إلى أسلوب جزل متميِّز في الكتابة تفرَّد به واشتهر»[٢٤].

ويعترف له الأستاذ الأشتر فيقول: « لو جاز أن نمثِّل لبعض الناس بالكتاب لكان صديقي الأستاذ أحمد راتب النفاخ يكون واحدة من المخطوطات النادرة التي جار عليها الزمان فوقعت فيها خروم وانطمست كلمات، وانقصفت أوراق، ولكنها ظلت حيَّة تحتفظ بقيمتها وتنفرد بحقائقها، فما نجده فيها قد لا نجده في كتاب آخر»[٢٥]. أما أستاذنا الدكتور الفاضل وتاج العلم المبجَّل محمد إحسان النص فيثني على مكانته في البحث العلمي والفكر؛ فيقول: «كان قمة شامخة من قمم البحث العلمي، وكان بحرًا فياضًا في مجال الدراسات الإسلامية واللغوية والأدبية، وكل ما يتصل بالتراث العربي الإسلامي»[٢٦].

فالأستاذ النفاخ تربَّع على عرش العلم والبحث واللغة في زمانه، ولم يجرِ أَحد في حلبته؛ كان بمنزلة السابق، ولم يتراجع قط إلى مرتبة المصلّي أو المجلّي... إليه المورد وعنه المصدر، وهو وحده من يتصيد شوارد الأفكار. وكان له أصدقاء «من كبار العلماء والباحثين في شتى أقطار العروبة والإسلام، وكلهم عرفوا له مكانته العلمية ورسوخ قدمه في علوم العربية؛ والدراسات الإسلامية والقرآنية»[٢٧].

فكم من صديق، أو عدوّ عالمٍ أَقَرَّ لك بالفضل والعلم؛ اعترف لك الجميع بقصب السبق؛ وعرفوا عن كثب قدرتك العظيمة على اكتناه الحقائق ومعرفة مفاصل الكلام وتمييز أساليب الناس. وكأنك ورثت هذا كله من علاّمة العصر الميمني؛ والعلاّمة الراوية محمود شاكر، ثم عمَّقته بحدة الذكاء وسرعة الخاطر، ودقة الفهم.

فإذا قرئ عليك كلام ما من دون نسبة عزوته إلى صاحبه، وما خاب حَدْسك في أسلوب ما؛ وأنت القائل: « رابني في هذه النسبة أني لم أحسَّ في

الكتاب نَفَسَ ابن القيِّم الذي أَعرفه فيما قرأتُ من كتبه، ولا طريقته. ثم رأيت الأستاذ خير الدين الزركلي – رحمه الله – قال في التعليق على ترجمة ابن القيِّم في (الأعلام ٦/ ٢٨١–) وفي (نموذج الشيخ منير ٧٨) نُسب إليه كتاب (أخبار النساء) وهو لابن الجوزي؛ والكتاب أشبه بكتب ابن الجوزي حقًا؛ إلا أن أمر تسميته يحتاج إلى مزيد من التحقيق» [٢٨]. وقلت في تعليقك على تحقيق الطبعة الثانية لرسالة الغفران (سنة ١٩٥٧م): « وما كنت قلته – سنة ١٩٥١ – اجتهادًا قد وجدته مؤخرًا منصوصًا عليه. فقد أورد ابن قتيبة الأبيات – مع خلاف في بعض اللفظ – في المعاني الكبير ص(٣٧٦)» [٢٩].

ويؤكد ذلك أستاذنا الدكتور الأشتر قائلاً : « كان من أقدر الناس على قوة التمثُّل؛ والوقوف على مفاصل الكلام، كما كان يسميها (يعني محاورها الفكرية) وكان يبلغ من العمق في تحليل الكتب أحيانًا ما يصلح لو كتب أن يكون درسًا يقرأ» [٣٠].

ويحدثنا الأستاذ الزبيق عن تجربة له مع الفقيد الراحل فيقول: « كنت آتيه – كعادتي – أصيل كل يوم، أقرع بابه على استحياء، فيستقبلني كعادته بوجه طلق؛ أدخل الغرفة الصغيرة التي باتت أحبَّ إليَّ من بيتي، وأجلس حيث اعتدت أن أجلس فيها، وأنشر أوراقي، وتبدأ جلسة لن أنساها طوال عمري؛ جلسة تعيش فيها لذة اكتشاف المعاني المخبوءة تحت أطلال التصحيف والتحريف وتشهد قراءة للنّص هي إبداع له من جديد. وأذكر مرة أني سهوت في أثناء نسخي لأحد أبيات ابن منير فقدَّمت كلمة على كلمة في البيت. ولم يخلَّ هذا التقديم بوزن البيت ولا بمعناه، ولكن الأستاذ حين تأمَّله طويلاً؛ قال لي جازمًا: لو كان قائل هذا البيت شاعرًا حقًا لقدَّم هذه الكلمة على تلك. فوجئت حقًا؛ ولم

أجد جوابًا. وحين عدت إلى البيت بحثت عنه في المخطوط فوجدته على الصورة التي اقترحها الأستاذ، وحين خبّرته خبر البيت في اليوم التالي ما زاد على التبسم» [٣١].

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أسوق حكاية ما وقع لي معه، فقد كنت ذات يوم أراجع مسألة في كتاب (سمط اللآلي) لأبي عبيد البكري؛ فاعتاص علي أمرها وأشكل، واشتد بي الكَرْب لأن الساعة غير مؤاتية لكي أهاتفه، بيد أن جفائي الأعرابي كان أقوى من مدارج الكياسة والمدنيَّة، فإذا بيدي تقع على قرص الهاتف وتحرِّك أرقام هاتفه – على حين كان ألفُ سؤال وسؤال يتردَّد في ذهني من هذا التصرف – ولكنه – رحمه الله – ما إن سمع ندائي حتى تلقاني بقوله: أهلاً يا حسين، أين أنت يا أخانا؟. فإذا به يخفف عني ثقل جبل كان يعلو عاتقي، وزال الحرج، وشفي جرح كَرْبي بكلماته الودية، فكان أشبه بجرَّاح ماهر أبرأ نفسي من سقمها. ودلفت إلى منزله وقت الهاجرة من صيف دمشقي غير معتاد في شدة حرارته؛ وكنت أقطن على مسافة أميال معدودة من منزله في منطقة الجبة من الشيخ محيي الدين؛ على حين بيتي في سفح قاسيون من منطقة ركن الدين، وما إن فتح الباب حتى استقبلني بوجه يطفح بالمسرَّة والترحيب والبشر وكأنه يلقاني أول مرة بعد غيبة طويلة؛ وهو يقول رادًّا عليَّ السلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أهلاً يا أخانا؛ تفضَّل يا أخانا، أين أنت يا أخانا؛ لم نرك منذ أمد ؟ ويأخذني المجلس إلى إحدى الأرائك التراثية القليلة في الغرفة الصغيرة، لكنها كانت فسيحة الأرجاء في احتضان شداة العلم ومحبيه، إنها غرفة أشبه بغرف الزُّهاد والناسكين، ثم أخذ الأستاذ مجلسه على أريكة تعوَّد أن يتخذها لنفسه؛ وهي دون بقية أخواتها؛ فسارعته بالسؤال، باسطًا له قول البكري، ظانًا الظن الحسن بزناد

فكري، وبأنني ألفظ كلام البكري على منواله الحق، فإذا به يقاطعني قائلاً: ما هكذا يقول الرجل، وهذا كلام لم أعهده في أسلوبه، ثم ألقى إليَّ كلامًا يعتقد أنه الوجه الصحيح. ومن ثم نهض إلى غرفة مجاورة كانت مخصَّصة للكتب، فإذا بكتاب البكري يستقري كلام الأستاذ، لم يخرم منه حرف، فجاء كما ذهب إليه؛ ثم ذلَّل لي ما كان قد اعتاص عليَّ وشغلني، وبيَّن لي الوجه فيه؛ فغمرني علمًا ورحمة.

لقد سما بالعلم الشريف الأصيل حتى صار مصدره ونبعه، واستقام فيه على منهج الحق والصدق والدقة والشمول والاتساع فكان الكامل فيه؛ ولم تعد صفة (الكَمَلَة) حكرًا على بعض العرب من الجاهليين، كالربيع بن زياد العبسي(٣٢)؛ وكأنه ينطبق عليه قول محيي الدين بن عربي في نظرية الإنسان الكامل، فهو الكون الأصغر(٣٣):

سرُّ الوجود الكبير هذا الوجود الصغير

فالأستاذ النفاخ كان «واحدًا من علماء العربية الكبار، يكاد يكون لا مثيل له في أوطان العربية الممتدة إلى حيث يقرأ القرآن ويؤذَّن للصلاة» كما قال الدكتور الأشتر(٣٤) .فكم من أجيال متعاقبة تلقَّفت العلم على يديه، وكم من قوافل بعيدة استقرت مطاياها عند عتبات بيته، وصدرت عن منهل علمه نهلاً بعد علل.

لهذا كله فإن فقده لا يمثِّل فقدًا عظيمًا لذويه وأهله وخلاّنه وطلبته ومريديه وأهل العلم والعربية فحسب، بل هو خسارة كبرى أُصيب بها الوطن كله. وقد أحسَّ بهذه الفجيعة أستاذنا الدكتور النص فقال: «لقد فقد مجمعنا بفقده ركنًا من أركانه الوطيدة، وفقدت الأمة العربية باحثًا محقِّقًا قلَّ نظراؤه في أقطار الوطن العربي»(٣٥).

ولا يفوتني في هذا المقام عدم ذكر ذلك اللقاء الذي جمعني بالأستاذين الفاضلين الدكتور حاتم الضَّامن، والدكتور أحمد مطلوب... فقد التقيت بهما صيف عام (١٩٩٧م) في رحاب جامعة اليرموك؛ في أيام انعقاد مؤتمر النقد الأدبي السابع... وكان الأستاذ علاَّمة الشام مرتكز حديثنا أبدًا؛ كل منهما يقرظه على طريقته بما لا يمكن أن تتسع له الصفحات، سواءً كان ذلك في منهج التحقيق أم سعة العلم؛ وعمق المعرفة؛ أم القدرة على سبر أغوار النَّص التراثي وردّ الأشكال إلى أشكالها...

فكم شعرت بالفخر والاعتزاز؛ لأنك كنت الغائب الحاضر في ذلك المؤتمر مع العديد من الأصدقاء الذين يتسابقون إلى الثناء على قدرك وشخصك.

فإذا كان جسدك قد انقطع من الدنيا فإن ذكرك العطر باق ما بقي الوفاء والصفاء؛ وما بقي أهل العلم ومحبو العربية والتراث.

ولا شيء أدل على أقوالهم من آثارك السنية التي تركتها زادًا لهم ولنا؛ ومن منهجك في التحقيق والبحث العلمي، إنه مدرسة متميِّزة قلَّ أن نجد لها مثيلاً؛ لأنها ربطت بين أصالة التحقيق التراثي، ولم تنفصل عن المعاصرة بكل ملامحها الفكرية البناءة.

وهذا ما سنتحدث عنه فيما يأتي .

٥– آثاره:

ترك الأستاذ النفاخ لنا وللأجيال المقبلة آثارًا على قلتها تدل على إبداع فريد، وفهم رفيع؛ ونقدٍ فذٍّ وجريء... فقد بقي لنا منه «كتب وفهارس ثمينة، ومقالات ومختارات، ونقول، ورسائل وشروح وتعليقات؛ فضلاً عن كثير مما لم يُطبع منها، وفيها أثره الكبير في القراءات. وهي في جملتها ثروة أدبية ولغوية

تبلغ الغاية في الإتقان»[٣٦].

وسبق أن أشرنا إلى أنه – رحمه الله – أخذ نفسه بالكمال، وحبّ الإتقان، ولهذا قَلّ نتاجه من الكتب بين أيدي الناس، وصدق فيه قول العباس بن مرداس[٣٧]:

بُغاث الطير أكثرها فراخًا وأُمُّ الصَّقر مِقْلاتٌ نَزُورُ

وإذا كانت كتبه قليلة العدد، فأفكاره المبدعة لا يحصيها مُحْصٍ، ومريدوه من مشرق الوطن العربي إلى مغربه، وفي العالم كله، ولاسيما الإسلامي، أعظم من أن يعدّوا. ولذا قال الأستاذ النّص: « نهل من معينه الثر المئات من الباحثين، واغترف من مورده الآلاف من الطلاب من أبناء العروبة الذين قرؤوا عليه»[٣٨].

وقد عرف القاصي والداني – كما يقول الأستاذ الدكتور حسني سبح (رئيس مجمع اللغة العربية السابق) – « ما كان للأستاذ النفاخ من خبرة متميِّزة في تحقيق كتب التراث، ومن اطلاع واسع على اللغة... فالأستاذ سلفي المنبت عصري المنهج»[٣٩].

ولم يبخل على صديق، أو غيره بتصحيح ما كان يراه في عمله المحقَّق؛ لأنه كان رجل علم وعدل. ولعل حق العلم ووفاءه للتراث وأئمته قد جرّا عليه نقمة عريضة ممن لم يَصْدَعوا للحق؛ على حين كان يرى في تصحيح أخطائهم – رحمه الله – مؤازرة لهم وللعلم ... فلم يكن نقده لأي باحث أو محقِّق على وجه التجريح أو الطعن فيه؛ بل كان على وجه الخير في تصحيح كل ما يمكن أن يشوِّه من مصادر التراث، فشِدَّته بل حزمه في هذا المجال إنما كان منه توجيهًا وتسديدًا لكل عمل؛ ولئلا يتجرأ أحد على إخراج كتاب تراثي قبل استكمال صورة تحقيقه على وجه دقيق وصحيح ...

ولعلي في هذا المقام أُبين ما كان من تعليقه على تحقيق (رسالة الغفران) للدكتورة بنت الشاطئ؛ وقد أذعنت للحق، وأخذت بكل ما عنَّ له من نظرات وآراء؛ لهذا أشاد – رحمه الله – بروح العلم والحق لديها قبل تعليقه وبعده؛ ومما قاله مقرِّظًا إياها: « وكانت المحققة ضَبطت – في الطبعة الأولى – كلمة (شُطَبا) بضم الشين وفتح الطاء؛ وشرحتها بأنها جمع شُطَبة؛ وهي السَّعْفة الخضراء. فصححتُ – في مقالي السابق – ضَبْط الكلمة، وذكرت أنها ينبغي أن تضبط (شُطِبَا) بفتح الشين وكسر الطاء؛ أو بالتحريك؛ بالاعتماد على القاموس المحيط واللآلي ومعجم البلدان؛ وهو اسم جبل. فأصلحت المحقِّقة – في الطبعة الجديدة – الشرح على ما جاء في مقالي؛ على حين أبقت الكلمة في متن الكتاب مضبوطة كالسابق (شُطَبا)»[٤٠]، وحتمًا قد وقع منها هذا سهوًا ...

هكذا تركت نباهته أثرها واضحًا منذ وقت مبكر، سنة (١٩٥٠م) ولم تزد سنه على ثلاثة وعشرين ربيعًا، وإثر تخرجه من الجامعة. ونستدل على هذا من آثاره الآتية ذاكرين الكتب ثم المقالات تبعًا لتاريخ نشرها[٤١]، ومنوِّهين بآثاره المخطوطة .

أولاً – الكتب المطبوعة :

١- النصوص الأدبية: (منهاج شهادة الثقافة العامة في كلية الآداب) بإشراف أحمد راتب النفاخ – مطبعة الجامعة السورية – ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

٢- ديوان ابن الدمينة: صنعة أبي العباس ثعلب، ومحمد بن حبيب – تحقيق أحمد راتب النفاخ – مكتبة العروبة – القاهرة – ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

وهو جزء من رسالته لنيل درجة الماجستير، ولكنه دلَّ فيه على مقدرة

عالية في التقصّي والتحقيق وسعة الاطلاع على مصادر التراث، والاهتداء إلى حل المشكلات العويصة، ومع ذلك فقد أكَّد تواضعه للعلم والعلماء، إذ قال فيه: « وبعد؛ فما أشكُّ أن بين عملي، وما أريده له بونًا بعيدًا؛ وإني لآمل أن أجد من آراء الزملاء الدارسين ممن ينظرون في هذا الديوان ما يعين على استكمال أسباب التحقيق؛ من تقويم عوج، أو تصحيح خطأ، أو تلافي نقص» .

وقد نظروا فيه – من دون شك – فما وجدوا فيه شيئًا يمكن أن يُضيفوه حتى الآن. ولعل اختياره لهذا الشاعر الغزلي ليس لإعجابه به فقط؛ وإنّما لحالة نفسية ذاتية كان يمرُّ بها آنذاك؛ فجعله نافذة له للتعبير عن مشاعره المرهفة دون أن يبوح بمكنون نفسه صراحة... وهذا ما يستشف من حديث خاص للأستاذ الأشتر معه؛ في منتصف ليل صيفي مقمر وهما يمشيان في أطراف دمشق قريبًا من كيوان. فلما كلاّ استراحا تحت شجرة صَفْصاف بجوار نهر يزيد، فجاشت نفسه بالبوح(٤٢).

٣- مختارات من الشعر الجاهلي: اختارها وعلَّق عليها أحمد راتب النفاخ – مكتبة دار الفتح – دمشق – ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

ويعدُّ هذا الكتاب مدرسة في الاختيار الدقيق منهجًا وتحقيقًا واستقصاءً وتعليقًا؛ وإثباتًا للحواشي الدقيقة ... وتدريبًا على نخل الروايات وتصحيحها وإثبات المطلوب منها . وقد أخذ بعض المعاصرين جزءًا ليس باليسير من الكتاب، ووضَعوه في كتبهم حتى نُسب إليهم(٤٣).

٤- فهرس شواهد سيبويه: صنعة أحمد راتب النفاخ – دار الإرشاد/ ودار الأمانة – بيروت – ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

وهذا الكتاب فريد في بابه، فهو من أهم الكتب علمًا وتحقيقًا، وقد تفوَّق فيه على أمثاله من المحققين. إذ نسَّق الشواهد: القرآن فالحديث ثم الشعر، فقرَّب كتاب سيبويه إلى الناس، بصَّرهم بمسائله العويصة؛ وذلَّل لهم الطريق الوعرة، وشذَّب مسالكها(٤٤).

٥- كتاب القوافي: لأبي الحسن الأخفش – تحقيق أحمد راتب النفاخ – دار الأمانة – بيروت – ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

وكان قد هيَّأ هذا الكتاب للطبع على نسخة مخطوطة وحيدة يملكها وحده؛ ومن ثم عَلِمَ بِنِيَّة أحد الباحثين الأفاضل نَشْرَهُ؛ فتلبث وتريث، ثم ظهر كتاب (القوافي) مطبوعًا في وزارة الثقافة بدمشق عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) بتحقيق الدكتور عزة حسن، نشر نقدًا له في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في المجلد السابع والأربعين(٤٥)، ثم عقد العزم على نشر الكتاب محقَّقًا ومحررًا من كل عيب، فكان في طبعته السابقة .

ومن يرجع إلى طبعة وزارة الثقافة، وإلى طبعة الشيخ الجليل يدرك البون الشاسع بينهما، ففي عمل الشيخ جهد العالم المحقِّق المتابع المناظر القابض على مصادر التراث ومعرفة دقائقه وأسراره .

٦- شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: لأبي أحمد العسكري (الحسن بن عبد الله بن سعيد: ٢٩٣- ٣٨٢هـ(– تحقيق الدكتور السيّد محمد يوسف – مراجعة الأستاذ أحمد راتب النفاخ – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق – ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

قدَّم الأستاذ رحمه الله لهذا الكتاب فَضائل لا تُحصى؛ شرحًا وتعليقًا وإضافات مما ›دعا إلى جعله في قسمين: وقد صدر القسم الأول من الكتاب.

مما يُؤسف له أن الأسباب لم تتهيأ لصدور القسم الثاني منه؛ ففاتنا بذلك علم غزير»[٤٦]، كما ذكر الأستاذ العلاَّمة الدكتور شاكر الفحام .

وأثبت الأستاذ للكتاب مقدمة جليلة نوّه فيها بفضل شيخه الميمني؛ وأشار إلى تتبعه لنُسخ الكتاب في القاهرة ودمشق، رأى تطابقًا بين أصول شيخه، وما وقف عليه المحقِّق الدكتور يوسف، ثم بيَّن جودة القسم الأول تحقيقًا وشرحًا، على حين لم يكن الثاني بمستوى سابقه؛ لأن المحقِّق عمل فيه وهو بعيد عن مكتبته، وشيخه الميمني، مما وجد فيه مجالاً كبيرًا للتعليق عليه[٤٧].

وقد ميَّز تعليقاته من تعليقات المحقِّق فقال: «وكنت إذا ما عنَّ لي ما أَزيده على تعليقات الدكتور جعلته ما بين حاصرتين[ ]»[٤٨].

ثانيًا – المقالات المنشورة، وما ناظرها :

١- رسالة الغفران: (تعليق ونقد) – مجلة (الكتاب) المصرية – مج ١٠- ج٦- حزيران/ يونية – ١٩٥١م.

وقد أشرنا سابقًا إلى أن بحثه هذا أول مقالة له أرسل بها إلى المجلة فتصرَّفت فيها حتى أفسدتها.

٢- القصيدة الصورية – مجلة معهد المخطوطات العربية – مج٢ – ج١ – ١٩٥٦م.

٣- رسالة الغفران – باب التعريف والنقد – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٣٢ – ج٣٢- ج٤- ص(٦٨٥)- لعام ١٩٥٧م/ ومج٣٣- ج١- ص (١٤٦) وبعد – لعام ١٩٥٨م.

٤- المحتسب – باب التعريف والنقد – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق- مج٤٢ – ج٤- ص(٧٥٨) وبعد – ١٩٦٧م/ ومج٤٣- ج١-

ص(٧٩) وبعد – وج٢- ص٣٦٩ وبعد – لعام ١٩٦٨م.

«وعرض جملة ما استدركه حتى ختام الكلام في سورة البقرة؛ ثم رغَّب إلى القائمين بالكتاب أن يعيدوا معارضته بالأصل ثانية، وأن يستعينوا على استكمال تحقيقه بأصول أخرى»(٤٩).

٥- المعيار في أوزان الأشعار – مجلة معهد المخطوطات العربية – مج١٥- ج١- ٢- لعام ١٩٦٩م.

٦- نظرات في كتاب اللامات – مجلة العرب – السنة ٥ – ج١- ١٩٧٠م.

٧- كتاب القوافي لأبي الحسن الأخفش – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٤٧- ج١ – ص (٩٢) وبعد – ١٩٧٢م.

٨- تعقيب على أرجوزة في العروض – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – ٤٧ – ج٤ – ص (٨٦٣) وبعد – لعام ١٩٧٢م.

٩- كتاب إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج ٤٨- ج٤- ص (٨٤٠)- ١٩٧٣م/ ومج٤٩- ج١- ص (٩٣)- ١٩٧٤م.

١٠- كلمة في حفل استقباله، وقد تحدَّث فيها عن سَلَفه الشيخ محمد بهجة البيطار – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج ٥٣- ج١- ص (٢٢٠- ٢٤٥)- ١٩٧٨م.

وتعدُّ كلمة هامة في الكشف عن عوالم للشيخ بهجة لا توجد إلا فيها، فضلاً عن أمور كثيرة أخرى .

١١- حركة عين المضارع من (فَعَل) – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٥٧- ج٣- ص(٤٧٢- ٤٨٥)- ١٩٨٢م. ويدل في هذا المقال

على معرفة عجيبة بعلم لا يمكن أن ينضبط بشكل وطريقة. فهو يعلِّق مثلاً على عين المضارع في (ضَرب) و(نَصر) فيقول: « وما سمع فيه الوجهان؛ فالأصل فيما كان من هذا القبيل أن يترك لكل امرئ أن ينطق به على الوجه الذي يجذبه إليه طبعه ويخف على لسانه ... ولكن إذا ما شاء امرؤ أن يختار لنفسه في ذلك مذهبًا يبنيه على أصل ما؛ من غيرما إنكار على من خالف اختيارُه اختيارَه فلا حَرَج عليه في ذلك[٥٠].

١٢- كتاب المحبَّة لله سبحانه: تحقيق الأستاذ عبد الكريم زهور عدي – مراجعة الأستاذ أحمد راتب النفاخ – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٥٨- ج٤- ص (٦٥٧- ٧٢٩)- ١٩٨٣م/ ومج٥٩- ج٢- ص (٢٤٥- ٢٨٤) / وج٣- ص (٤٦٣- ٥٠٤)- ١٩٨٤م.

١٣- نظرات في نظرات – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٥٩- ج٣- ص (٥٨٧- ٦١٨) (باب التعريف والنقد)- ١٩٨٤م/ ومج٦٠- ج٢- وج٣- ١٩٨٥م.

١٤- فقيد المجمع الأستاذ عبد الكريم زهور عدي: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٦٠ – ج٣- ١٩٨٥م.

١٥- استفتاء وجوابه – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٦٠- ج٤- ١٩٨٥م.

١٦- أشعار اللصوص وأخبارهم (باب التعليقات) للأستاذين أحمد راتب النفاخ والدكتور شاكر الفحّام – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٦٦- ج٤- ١٩٩١م.

والأشعار من صنعة الأستاذ عبد المعين الملوحي؛ ثم جمعها ثانية؛

وأصدرها في كتاب خاص .

ثالثًا– الآثار غير المنشورة :

لعله من نافلة القول أن نذكر مؤازرة الأستاذ النفاخ للمحققين وتصحيح ما كان يعنّ له، فضلاً عن الاستشارات الكثيرة من قبل مريديه وأصدقائه ... لاستطلاع رأيه والوقوف على الحق ... وكل منهم محضه الشكر في مقدمة كتابه، وأثنى على فضله وعلمه(٥١)، ولولا اعترافهم ما عرفنا ذلك.

أما آثاره التي لم تظهر إلى النور فأبرزها ما يتعلق بالقراءات القرآنية التي أملى شيئًا منها على طلبته في الدراسات العليا ... فضلاً عن علوم القرآن؛ مثل (معاني القرآن) للأخفش، و(معاني القراءات) للأزهري، وكتاب (طبقات القراء) للحافظ الذهبي؛ و(الشيرازيات) و(العسكريات) لأبي علي الفارسي، و(جمال القُرَّاء) للسخاوي. فهذه الآثار وغيرها مازالت مخطوطة؛ ومحبوسة في خزائن مكتبته.

لهذا يقول الأستاذ الدكتور شاكر الفحّام: «وحفلت كتبه بالتعليقات الثمينة القيِّمة؛ فقد كان – رحمه الله – إذا لاح له – وهو يقرأ كتابًا – موضع يحتاج إلى تعليق لإيضاح مبهم، أو إصلاح غلط؛ يسارع إلى إثباته في حاشية الكتاب. وكانت هذه الفوائد التي لا يقوى عليها إلا عالم ثَبت متمكِّن كالأستاذ راتب، معروضة لكل وارد أحبَّ أن ينتفع بها»(٥٢).

وقد اطلعت – فيما اطلعت عليه – ما علَّق به على كتاب (تأويل مشكل المتنبي) – وأذكر أنه قال لي – رحمه الله –: إن ما حواه هذا الكتاب من تعليقات جعلته مصدرًا لي أرجع إليه في كل حين؛ ويكاد لا يفارقني .

وكم رجوته أنا وأصدقائي من مريديه ومحبيه وأصدقائه، أن يخرج تلك

التعليقات ليفيد منها الناس، فلا يزيد على الصمت .

وهذا ما كان يقوم به أستاذنا الفحّام إذ يقول: «فإن أغلى ما في الكتب النوادر وأنفسه تلك التعليقات التي حفلت بها حواشي كتبه. وطالما رجوت الصديق الكريم أن ينشر تلك التعليقات ليفيد منها الباحثون وطلاب العلم»(٥٣). وقد سمعت هذا الكلام من أستاذنا الفحام غير مرة في مكتبه بمجمع اللغة العربية.

أما أثره في القراءات القرآنية — وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه — فخبرُه عند أستاذنا الفحّام، فيقول: «ومازلت أذكر أن الدكتور شوقي ضيف، وكان المشرف على رسالتي أيضًا؛ حدثني عن رسالة الأستاذ راتب في القراءات حديث المعجَب؛ وذكر لي أن الجزء الذي قدَّمه كافٍ لنيل درجة الدكتوراه. وطلب إليَّ أن أبلغه ذلك، وأحثه على الحضور إلى القاهرة للمناقشة، وأبلغت الصديق الرسالة؛ فما زاد على أن تبسم»(٥٤).

وقد أكَّد لي ذلك غير مرة أستاذنا الدكتور الفحام(٥٥)، وغيره من الأساتذة الأفاضل، فضلاً عما أحسست به في مجالستي إياه، وكأنه رأى في صورة طلبته ومريديه ما يعوِّضه عن اللقب العلمي، وفيما قلناه عن إجازة علاَّمة العصر له برواية أمهات الكتب .

لهذا فإننا نتمنى على الله أن يمد يد المساعدة لولده (عبد الله) كي يُخرج للباحثين وللأمة هذه الكنوز؛ لأننا نؤمن بأنه ما من باحث منصف اطلَّع بعمق ودراية على آثار الأستاذ السنية إلا وجدها تنتظم في بنية فكرية ومنهجية تحفيزية لاستلهام نسق الحق واتباع الدقة في المعالجة، والأمانة في الموروث الفكري. فهي تؤسس ذلك على منهج البناء الحقيقي لجدار الثقافة العربية والنهوض بإحياء تراثها العظيم، مما يجعل الحاجة إلى نشر مخطوطاته ضَرورة

ملحة وأساسية للأجيال .

فأي أَثر مما تقدَّم ذكره يُثير في الإنسان إحساسًا بالفكر والوجود؛ وإثبات الذات الحضارية، ومن ثم تصبح قراءة أي أثر آخر تجربة حيَّة منقذة من حداثة ثقافية مأزومة لا طعم لها ولا مذاق؛ في كثير من اتجاهاتها الفكرية والأدبية، والأدبية واللغوية والبلاغية .

وقبل أن نتناول منهجه في دراساته وتحقيقه؛ علينا أن نتساءل: إذا كانت عبقرية هذا الرجل قادرة على كشف أساليب الكلام ومفاصله وأسراره: ألم يقل الشعر؟ وأين هو ؟ بلى، لقد قال الشعر؛ وله فيه حكايات يرويها عنه أصدقاؤه، كما يتبين لنا فيما يلي.

رابعًا — الإنتاج الشعري :

لعل من باب الإدهاش ألا يكون (أبو عبد الله) شاعرًا، ولكننا نفتش عن شعره فلا نجد إلا أبياتًا تسللت من أصابع الزمن في لحظة بوح وجداني لصديق؛ أو في تجربة فريدة عاينها هذا الصديق أو ذاك، فشعره يصدق عليه ما يصدق على آثاره في القراءات، فإذا لم يبلغ حد الكمال فلا نصيب له من النور.

ويبدو أن موهبة الأستاذ الشعرية ظهرت منذ ريعان الشباب كبقية مواهبه الأخرى، ويحكي لنا الأستاذ عبد الهادي هاشم رحمه الله، بعض تجاربه مع (علاَّمة الشام) منذ المرحلة الثانوية في (جودة الهاشمي) وكان يُقال لها (التجهيز) فيقول: «ومن ذلك أنه كان يقرأ من المقرر في الصف التاسع أو العاشر قصيدة مهيار الديلمي المشهورة التي يفخر فيها بآبائه من الفرس والتي مطلعها:

أُعجبَتْ بي بين نادي قومها ذات حسن فغَدت تسأل بي

فحمي راتب لقومه ولغته وأخذ يردُّ على مهيار بأبيات على وزن

قصيدته يخاطبه فيها ويقول :

لا تقل: لي في المعالي نسبُ ليس في المجد كآبائي أبُ
لغتي الضَّاد وقومي عرب عزَّت الضَّاد وعزَّ العربُ

وله قصائد كثيرة ينحو فيها نحو الصوفية، ويبدو فيها أثر ديوان إقبال (ضَرْب الكليم) ولكن راتبًا زاهد في شعره؛ فإذا نشر شيئًا منه رمز إلى قائله أو عزاه إلى غيره من الشعراء»[٥٦].

أخيرًا أقول: إن أي إنتاج للأستاذ النفاخ يعدُّ زهرة عطرة في بستان جميل؛ كيفما قلبتها انتشيت برائحة زكية، وكيفما سرت في رياضه ظهرت لك قامته الشامخة، وتسامقت أمام كل ما نعرفه ممن يعرضون كتبهم على أرصفة المدن، ويفرّخون بغاثهم الذي استنسر، ولكن هيهات هيهات ... فإن ذلك كله لا يغيّر من الحقيقة؛ أو الحق شيئًا، فالشمس لا تضيئها الكواكب؛ وسيبقى شمس العلم ونوره.

وهذا كله يدعونا إلى الوقوف عند منهجه في التحقيق والدراسة.

٦- منهج التحقيق لدى علاَّمة الشام :

إن تجربة التحقيق عند علاَّمة الشام؛ بل الكتابة كلها، انقلبت إلى فعل إبداعي خَلاّق؛ إذ أراد للنّص المحقَّق أن يعود إلى نَصاعته وبهائه كما أراده له صاحبه. لهذا كان – رحمه الله – شديدًا على نفسه في هذا المجال، وأراد للآخرين أن يكونوا مثله؛ مستندًا إلى احترامه لذاته وتراث أمته، وللعلم والأخلاق والحق.

فتجربة التحقيق لديه – بهذا المفهوم – موقف ذاتي وطني ثقافي إنساني من التراث والكون والمجتمع، لهذا تراه ينتفض غاضبًا من عبث العابثين، وتخليط

المتسرعين في تحقيق التراث، لأنهم يسيئون إليه بتقديمهم نُصوصًا لا تعبّر عن الحقيقة، ولا عن زمانها وبيئتها، وصاحبها، وعدَّ ذلك من باب الخيانة للأمانة العلمية، فتراه ينقضُّ حانقًا على محقق ما؛ وربما رماه بمُرّ الكلام؛ لأنه تجرأ على أمر ليس أهلاً له؛ فَشوّهَ مقدَّسات الأمة؛ في وقت تحتاج فيه إلى من ينهض بها على وجهٍ صحيح .

أما من توسَّم فيه الخير والصلاح، والدقة في التحقيق، ولكنه وقع في هنات هنا أو هناك فإنه كان يُثني عليه أيما ثناء، ثم يقدّم له ما كتبه بكل تواضع وأدب ومحبة؛ لعله ينتفع به في الطبعة القادمة. وهذا ما وجدناه من موقفه – مثلاً – مع الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) حين طبعت رسالة الغفران فقال: «ظهرت الطبعة الأولى لهذا الأثر العلائي الهام بتحقيق الدكتورة بنت الشاطئ عام ١٩٥٠م، وكانت مثلاً طيبًا للمنهج العلمي في تحقيق النصوص ونشرها نشرًا علميًا محررًا، فتلقاها المشتغلون بالعربية وآدابها بما هي جديرة به من تقدير، ومنحها مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزته لتحقيق النصوص في ذلك العام. وكنت كتبت في تلك الأيام كلمة أشدت فيها بصنيع المحقِّقة، وبالجهد الذي تكبدته في ضبط النص وشرحه، وعرضت فيها لمواضع اتجه لي فيها رأي غير ما رأته الباحثة ... ولما ظهرت الطبعة الجديدة للغفران عمدت إلى قراءتها ومقارنتها بالطبعة الأولى؛ فإذا المحقِّقة عند حُسن الظن بها، فقد خَطت، في سبيل استكمال تحقيق النص وشرحه، خطوات فساحًا، غير ضَانَّة عليه بما يتطلَّبه المنهج العلمي الدقيق من جهد لا يقدِّره حق قدره إلا من مارس هذا العمل ووقف على صعابه. وقد كان موقف المحقِّقة مما كنت أَبديت من آراء – سواء ما نُشر منه في مجلة (الكتاب) وما لم ينشر – موقف المقدِّر،

فأخذت بالكثير منها، وترددت في بعضها، وعزفت عن الأخذ ببعضه الآخر، فأحببت أن أعرض وجهة نظري فيما توقَّفت فيه على العاملين في هذا المضمار ليدلي بوجهة نظره مَنْ عَنَّ له رأي فيه، عسى أن نصل إلى وجه الصواب في هذا كله. وأَضفت إلى هذه النقاط نقاطًا لم أفطن لها فيما مضى»(٥٧).

ولعلنا نكتشف في هذا النَّص احترام العالم للآخر في الحق، وتواضعه لأهل العلم والثناء عليهم، وبسط القضية بين يدي أهلها؛ وهو ما عزّ وجوده عند علماء هذه الأيام، وهو لا يكتفي بذلك بل يعلن تواضعه على الملأ، وإذا كان قد أخطأ في نظراته فليُرَدَّ إلى الصواب: « هذا ما عنَّ لي من خواطر حول الطبعة الجديدة من رسالة الغفران. وإني لأشكر مَنْ رأى فيما أبديت خطأً فردَّني إلى الصواب، كما أشكر للمحقِّقة الأديبة جهدَها وخدمتها للأدب ولغة العرب»(٥٨).

فالمحقِّق الواعي، والعالم الحق المحب لتراث أمته قادر على التمييز بين الوَهْم العلمي أو الخطأ العلمي وبين الجهل في تحقيق التراث، وهو يعطي كل ذي حق حقَّه، بكل عدل وإنصاف، ومما يُؤسف له أن الناس قد أشاعوا عنه حِدَّته في النقد، ولم يستبينوا الحق في سبب نقمة الأستاذ، فهو أكثر الناس اعترافًا بالحق وانصياعًا له — على ما كان عليه من حدة في المزاج لرهافة حسه، وحساسيته الشديدة نحو كل من يتصدى للتراث بغير علم، ولابأس أن نضيف له مأثرة أخرى من ثنائه على أحد المحقِّقين؛ لكي يتعزَّز لنا الأمر، فالشيخ علّق على عمل للأستاذ صبحي البصّام فقال: «للأستاذ صبحي البصّام فيما يحبّره من مقالاتٍ التفاتاتٌ طريفة، وتحقيقات بارعة لا يغض من قدرها أنه ربما ذهب في بعض الأمور مذهبًا يرى غيره خلافه ومن ذلك أشياء استوقفتني وأنا

أنظر في مقالته، منها ما سها فيه الأستاذ في النقل عن بعض المصادر أو في تسميتها ...»[٥٩].

فكل من يقرأ أحد آثاره يتحقق رغبتَه في نشدان الحق والكمال والصدق، ويبين له مدى الزمن الطويل الذي مكث فيه حتى استجلى حقيقة الأمر، ولم يكن كغيره متسرعًا، لا مباليًا، كيف جاء الأثر المحقق، وقد ساعده على ذلك قدرة عجيبة على المتابعة والصبر والأناة مما يدل على حِلْم وذكاء ودراية لا نظير لها، فضلاً عن ثقافة موسوعية قديمة وحديثة فهو كما وصفه الدكتور حسني سبح « سلفي المنبت عصري المنهج»[٦٠].

وفي ضوء ذلك يمكن أن نتبيَّن ملامح منهجه كما يأتي :

١- الانغماس الصوفي في النص : لما نشد الكمال في العمل، وحُبَّ الإتقان، لأنه أراد له أن يمثِّل قيمة بقاء لا قيمة فناء –كما قال الدكتور العوا –[٦١]، أنكر ذاته في سبيل تحقيق النَّص، وشُغف به وتابعه في كل صغيرة وكبيرة ... فانقطع إليه انقطاع العابد الزاهد، فهو يتفاعل مع النّص تفاعلاً متبتلاً؛ فكم من فكرة كانت غلقة فجلاها وكشف أسرارها، فلم يهدأ له بال مادامت شاردة عنه، تعقَّبها ليل نهار، طلبها حثيثًا حتى انقادت له وانتهى فيها إلى رأي ما .

٢- الاستيفاء الكامل في التحقيق، رواية وشرحًا وتوضيحًا، وتحقيقًا لأي فكرة أو خبر أو شاهد، أو بيت من الشعر أو قول من الأقوال، مع إسناده إلى مصدره. وهو القائل: «ومن ثم رأيت من حق العلم عليَّ، ومن الوفاء لهذا التراث وللأئمة الذين أورثونا إياه ألا أدع بيان ما وقفت عليه»[٦٢].

فهو يستقصي مادة كل ما يقع بين يديه، ويُثبت إحالاتها على مظانّها،

ويُؤيد رأيه بالدليل «والدليل معيار. وهذا المعيار عنده هو تواتر الرواية عن إنسان عربي صريح من صميم العرب»(٦٣).

ولهذا قد تطول الإحالة أو التعليق لديه؛ فيعتذر عن هذا، فيقول: «وقد حملني على الإطالة في عدة مسائل أن كان لابد لاستيفاء الكلام في بعضها من دراسة طائفة من الأسانيد» . وهذا ما نجده في الحاشية(١١) من تعليقه الذي قدَّم له بهذا الكلام، حين قال: «علَّق محقِّقُ غريبِ الحديث د. عبد الله الجبوري على هذا التفسير قال: (لم أجده في كتاب الخيل) يعني كتاب أبي عبيدة المطبوع في حيدرآباد سنة ١٣٥٨هـ. وهو كما قال، مع أن الكتاب – كما جاء في فاتحته– من رواية أبي يوسف الأصبهاني، عن أبي حاتم عن أبي عبيدة. وقد صحَّ عندي أن ابن قتيبة ينقل عن كتاب آخر لأبي عبيدة في الخيل سماه ابن السيد في (الاقتضاب) كتاب (الديباجة)، وأما كتاب (الدِّيْباج) فالظاهر أنه هو الذي سماه ابن السيد كتاب (الديباجة)، يؤيِّد ذلك أنه جاء في التهذيب (٨/ ٢٣٢): (قال أبو عبيدة: من الأشقر سِلَّغْدٌ، وهو الذي خلصت شُقْرته؛ وأنشد: أَشقر سِلَّغَدٌ وأحوى أَدْعج). وهذا التفسير نفسه نقله البكري في اللآلي (ص١٤٧) عن كتاب أبي عبيدة أيضًا، وسمَّاه كتاب الدِّيْباج»(٦٤).

فهل يوجد – بعدُ – أعلى من هذا الاستيفاء والدقة في متابعة القضية التي تقف بين يديه؛ ومن ثم التثبت في رواياتها في مظانها الصحيحة ؟!!.

٣– المقابلة والموازنة بين الروايات، والآراء: لم يقدِّم الأستاذ رأيًا ما أو خبرًا، دون أن يُجري مقابلة وموازنة بينه وبين نظائره؛ وكذلك كان يقابل بين مصادر النّص أو الخبر ليتوصل إلى الأمر الصحيح، فهو حين يراجع أمرًا ما

يلجأ فيه إلى الموازنة كما نجده في تقديمه لكتاب (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) إذ قال: «وعلى ما عُرف به الدكتور من الإتقان وتحرِّي الدقة في تحرير ما يحققه وضبطِه، فقد أخذت أقابل عمله بهذه الأصول مبالغة في الاستيثاق، ثم لم أدع المقابلة بطبعة القاهرة التي قام عليها الأستاذ عبد العزيز أحمد»[٦٥]. وكنا قبل قليل أشرنا إلى مقابلته لتحقيق رسالة الغفران بمصادر التراث .

فحُبُّ الإتقان، ونشدان الكمال، وظهور النّص على حقيقته كان وراء منهجه الدقيق في تتبُّع مقابلة نصّ من النّصوص وموازنته بغيره، فضلاً عن الحياد والنزاهة والأمانة العلمية، والاتّصاف بالموضوعية. فلو أخذنا تحقيقه لديوان ابن الدمينة لرأينا أنه «ساق النصوص المتضاربة التي أشارت إلى موطن الشاعر، ووازن بينها وقارنها بنصوص أخرى، واستشهد بأبيات من شعر الشاعر حتى توصَّل إلى حقيقة لم يَجْلُها باحث قبله، فقال: والرأي الذي صح عندنا وتضافرت الأدلة والقرائن على نُصرته أن موطن ابن الدمينة إنما كان في الأصقاع الواقعة جنوبي الحجاز مما يلي اليمن»[٦٦]. فأي رواية مهما كان شأنها لابد أن تُعارَضَ بالروايات الأخرى، وبأقوال الأئمة كما سنراه بعد قليل.

٤– الدقة والأمانة العلمية: قبل أن يكون التحقيق منهجًا ثقافيًا ونقديًّا ولغويًّا فهو منهج خلقي منضبط على أصول وقيم، ويعدُّ الأستاذ النفاخ أحد أعمدة الدقة والأمانة العلمية في منهجه؛ لا يتحرَّج من الاعتراف بخطئه إذا أخطأ؛ أو بعدم عثوره على بيت أو خبر بعد تعقبه لياليَ وأشهرًا، وهو القائل: « لم أعثر على البيت في مختلف المصادر الأدبية، على حين جاء البيت مع آخر قبله في كثير من كتب الأدب واللغة، وقد عدَّد الأستاذ منها طائفة

حسنة»[٦٧].

وهو يردُّ كل رواية إلى موضعها، ويكتفي منها بالقدر الذي يَسُدُّ حاجته منها، دون أن يخلط بينها وبين غيرها، أو يشوِّه طبيعتها، أو يزيِّف في فحواها، فهو يُعيد كل رأي إلى صاحبه . ولا ضير علينا أن نثبت تعليقه على رواية بيت من الشعر، ومن ثم نسبته؛ إذ نسبه الأستاذ البصام إلى عِمرة بنت النعمان الأنصارية؛ وهو :

وهل هند إلا مُهْرةٌ عربيةٌ سُلاَلَةُ أَفْراسٍ تجلَّلها بَغْلُ

فبعد أن سرد اختلاف المصادر في نسبة الشعر لعمرة أو لهند أو لحميدة، قطع في نسبته إلى حُمَيدة بنت النُّعمان – على حين لم يقطع الأستاذ البصام في ذلك – ثم قال : « إذ الظاهر أن ما رأوه الصواب – أي (نَغْل) بالنون – لم ترد به رواية قط؛ وأن رواية (تجلَّلها بَغْل) هي المحفوظة، ولا رواية غيرها؛ رواه كذلك أبو عبيدة؛ والجاحظ، ثم سائر من أنشد هذا الشعر من أصحاب اللغة والأخباريين من أهل المشرق، على أنه يعتذر لصاحبة هذا الشعر بأنها لما جعلت المهرة العربية مثلاً لها في خلوص نسبها جعلت البغل مثلاً لرَوْح في ائتشاب نسبه، ولم تُرد أنه مثله من كل وجه»[٦٨]. وكان رَوْح بن زِنْباع فيمن تزوَّج حميدة، وفيه قالت الشعر السابق[٦٩].

٥- الاعتداد بالأئمة الأثبات، والأصدقاء الثقات: كان – رحمه الله – شديد الاعتداد بالأئمة الأثبات القدامى الأقدم فالأقدم يُحيل على آرائهم وكتبهم؛ وإن كان لا يتوانى في أي قضية تعنُّ له أن يعرضها على بعض الأصدقاء الثقات ممن يرى فيهم النَّجابة والإفادة .

فأي رواية لأي نص لابد أن تعارض بأصح الروايات وأقدمها فيقول: «

وكانت الخُطة التي اصطنعتها في هذا العمل أن أثبت كل قصيدة من أصح رواياتها مخرجًا؛ أو أتمها وأحسنها سياقة، ولم أدع أن أعارض الرواية التي أخذت بما تيسر لي الوقوف عليه من سائر الروايات، وإثبات اختلافها في الحواشي، ثم علَّقت على هذه القصائد شروحًا قد تطول وقد تقصر وفق ما تدعو إليه الحاجة. وجعلت معوَّلي في ذلك على أقاويل الأئمة الأَثبات من المتقدمين في شروحهم على دواوين الشعراء وكتب الاختيار، وما نقلته عنهم أمهات كتب الأدب واللغة، حتى إذا اختلفوا في شيء أشرت إلى اختلافهم وربما قدّمت قولاً على قول إذا بدا لي وجه للترجيح»(٧٠).

هكذا؛ اتصف – رحمه الله – بالثقافة الموسوعية؛ والوعي العالي؛ ورهافة الحساسية والفهم للتراث، وتتبُّع المصادر، والدقة والأمانة، والتمييز بين النص والخبر. وذلك كله أساس التحقيق، ولكل آلياته الخاصة. وكان يهتم بأصول البحث المنهجي؛ وطرائق استخدام المصادر والروايات، والصلات بين أنماط العلوم والفنون.

ولعل من أهم آليات المنهج السديد ألا يظن المرء بنفسه الظن الحسن؛ فالشك العلمي مَنْجاة من الزلل؛ وهذا ما كان يمارسه الأستاذ قولاً وفعلاً .

فما من رأي عنَّ له إلا عرض قضاياه الشائكة على أهل الرأي؛ والعلم والاختصاص لم يتحرَّج في ذلك؛ كما تبيَّنا في غيرما موضع مما تقدَّم. ولم يدّع الكمال وإن أخذ نفسه به، بل إنه لم يتردد يومًا في أن يسأل كثيرًا من الأصدقاء الأثبات عن مسألة ما، ويتراجع عن رأيه إذا قدّم له الصديق المسؤول ما فيه الشفاء؛ وهذا ما حدثني به الأستاذ الفاضل الدكتور إحسان النّص.

ولعلي قد شاهدت في بيت الأستاذ – غير مرة – حوارًا بينه وبين

الدكتور عدنان درويش؛ وكان الدكتور عدنان يحتدُّ في النقاش؛ على حين يظل الأستاذ هادئًا؛ وكأنه حقًّا طالب علم بين يدي معلم.

وفي ضوء ذلك كله قد ظهر لنا بكل جلاء عظمة أثره في الحياة الثقافية فكان تاج عصره ومفخرته لكل المنصفين من أهل العلم ...

ولكنْ يمكننا أن نتوقف عند إشارات سريعة موجزة لبيان أثره في الحياة الثقافية، وإن كان المجال لا يتسع له هنا .

٧– أثره في الحياة الثقافية :

تربَّع الأستاذ على عرش العلم والبحث العلمي في زمانه، ومازالت له هذه المكانة وذاك التأثير في النفوس؛ لأنه أخذ نفسه بمعاني الحياة السامية؛ ونشر العلم وفق منهج الأئمة الأثبات، فانتهت إليه جملة من العلوم لم ينازعه فيها منازع؛ وصارت كلمته لا تردّ في بابها.

وقد نازعته همته إلى أن يجدِّد منهج الأجداد في التلمذة، لكي تتعاقب الأجيال فيما بينها، ولئلا تنقطع جسور الثقافة، هذا المنهج الذي اعتمده رجالات العلم في الغرب، على حين عَزَف عنه جهابذة العلم لدينا ... !!

ولذلك كله فتح مكتبه، وبيته لشُداة العلم؛ بل فتح لهم قلبه فتربَّعوا فيه؛ وظن بهم الظن الحسن(٧١). فكان العالم والطالب؛ والصديق والمريد يجتمعون معًا، وكل منهم يسعى لالتقاط الدرر الثمينة، وهو لا يضنّ بعلم ولا يبخل بنصيحة أو عون، ولذلك يقول فيه الأستاذ عبد الهادي هاشم: «وقد يلقى زائره عنده طائفة من طلابه لم يقنعوا بما قرؤوه له أو سمعوا منه في محاضراته»(٧٢)، يبث في نفوسهم محبة العربية، والتزام الفُصحى، فطُبعوا على غراره.

لقد ترك أثره في أصدقائه، وأهل العلم؛ قبل مريديه وطلابه، ونهلوا من معين علم غزير، وعبّوا ما وسعهم ذلك كما يقول الدكتور الفحام : «وكنت كثيرًا ما أستشيره وأسائله في قضايا لغوية ونحوية شَمَسَتْ واستعصَتْ، فيُليِّن أَبيَّها؛ ويستدني قاصيها؛ فأحس أنه البحر علمًا ومعرفة». ثم يقول: «كان يستقبل طلابه وزائريه في منزله المعمور دائمًا، حيث كان يلتقي العالِم قد جاء يستفتي في مشكل صادفه. وكان يفِد إلى مجلسه كبار العلماء الذين يزورون دمشق يأتونه قاصدين، حبًا لِلقائه، وتطلعًا إلى فوائده»(٧٣).

ولعل من أبرز آثاره في أهل العلم أيضًا أنه ما بخل بعلمه عليهم وكان يرسل إليهم بتعليقاته التي عنَّت له حين قرأ هذا الكتاب أو ذاك. «وما أكثر ما كتب وصحَّح للآخرين، يبذل ذلك دون منّ، ولولا أن أشار عدة مؤلِّفين في كتبهم إلى ما قدَّم لهم، وشكروا له جميل ما صنع من أجلهم، لما علمنا ذلك» ؛ كما هو عليه كتاب (ديوان الردة) – مثلاً(٧٤).

وإذا كنت قد أشرت إلى الكثير من مؤثراته سابقًا؛ فإنني أرى أن أعظم أثر تركه هو هذا المنهج في التحقيق؛ منهج العلاَّمة محمود شاكر، والأئمة الأثبات.

ويظل أثر الأستاذ في طلبته ومريديه أعظم منه في غيرهم، وأكبر من أن تحيط به أوراق، فكل يتحدث عنه بمقدار تأثره به، ومدى الإفادة التي اختزنها في ذاته، ونقلها بأمانة إلى آثاره.

فكم من أجيال متعاقبة امتدت قوافلها على مدار سنوات أربعين؛ وهي تتلقف اللغة والأدب؛ والفقه والعروض؛ ومصادر التراث وتحقيقه، وتقف على الدراسات الإسلامية فتأخذ بألبابها ما يقدِّمه لها ولما أخلص لطلبته ومريديه

وأصدقائه، وأهل العلم، تفانَوا في حبّه، وتلقَّفوا منه كل كلمة بثقة واعتزاز لا يندُّ عنهم حرف مما يقول[٧٥].

فالأستاذ – رحمه الله – ترك أثره في كل من تعامل معهم، خلقًا وسلوكًا وعلمًا لم يتذمر يومًا، ولم يغلق بابه في وجه طالبي العلم، لهذا يقول أخوه نزار: «أما داره فكانت دار علم يؤمُّها العلماء وطالبو العلم من شتى أصقاع العالم، ومن كل حدب وصوب على اختلاف اختصاصاتهم. وهذا ما شاهدته على مدى ثلاثين عامًا؛ وكثيرًا ما كنت أنتظر عدة أيام لأظفر بفرصة أخلو بها إليه للتحدُّث في أمر من الأمور العائلية التي تخصُّه مباشرة .

وهذا لم يكن ليتيسر لي في حضور رواد علمه. ولا أذكر أنني استطعت حمله على إغلاق بابه يومًا واحدًا في أَمَرّ أيام مرضه وأقساها؛ وكنت ألحظ أنه كان يستعيد قوته ونشاطه عندما يقوم بشرح مسألة علمية لقاصديه؛ إذ يجدون عنده حلاً لكل معضلة، وشرحًا مفصلاً لكل مشكلة»[٧٦].

وقد كان طلبته في الجامعة يتزاحمون في محاضراته؛ فمن لم يجد مقعدًا افترش الأرض، وكل منهم يصغي إلى كل كلمة تنبس بها شفتاه، إذ كان آسرًا في طريقة حديثه عن هذه القضية أو تلك، أو عن هذا الشاعر أو ذاك، أو حين يتتبَّع مصادر التراث ويقابل فيما بينها ولا يمكنه أن يترك ذلك حتى يستقصيه ولو انتهى الوقت المخصص للمحاضرة؛ علمًا أنه كان منضبطًا في بداية دخوله حتى تضبط الوقت على سَمْته .

وقد كان بعض طلبة الجامعة يتحلقون حوله بعد المحاضرة؛ ثم ترى عددًا منهم يتسابقون إلى مكتبه وقد حملوا الكثير من الأسئلة، ويتلقاهم بكل أريحية حتى يطمئن كل واحد منهم إلى ما قدم به إليه، وهناك فئة أخرى من الطلبة

رأت أن ما يأخذونه من زاد علمي في الجامعة لا يكفيهم، على قيمته، فيطلبون المزيد، فيرون في بيت الأستاذ ملاذًا لهم، فإذا بهم يتوجهون إليه، ليجدوا فيه رجلاً دمثًا ليّن العريكة يستقبلهم بكل محبة ومودة . وصار البيت يغَص بالزوار؛ فلا تستطيع الأرائك القليلة العدد، وكراسي الخيزران المحدودة أن تفي بالغرض، فكانوا يفترشون أرض الغرفة الصغيرة.

وهذا حاله أبدًا مع كل طلبة العلم، كانوا جميعًا يرون فيه العالم الزاهد، والباحث الصادق الأمين كما في قول أمين قاعة الباحثين في المكتبة الظاهرية الأستاذ إبراهيم الزيبق: «نازعتني نفسي إلى زيارته في بيته، وطلبت من صديقين كانا من طلابه في الجامعة أن يصطحباني إلى زيارته حين يزورانه.

قرعنا الباب بقلب خافق، هذه أول زيارة لي لعالم اسمه يملأ السمع؛ وتخيَّلت فيما تخيلت بيتًا واسعًا، وأثاثًا مترفًا، ومكتبة ضخمة؛ ووجهًا يطل علينا مترفّعًا متجهمًا. وإذا الباب يُفتح ويطل علينا الأستاذ بوجه طلق تزيده قوة النظرات جمالاً وهيبة. ودلفْنا عبر ممر ضيّق إلى غرفة هي إلى الصغر أقرب؛ قد صُفّت فيها أرائك قديمة، ما إن جلست على واحدة منها حتى انبعث منها أنين البلى، وأقبل علينا الأستاذ النفاخ بوجه يطفح بالبشر وشعرت أنه قريب مني حقًا...»[٧٧].

ثم يسرد قصة مجلس له مع صديقيه الطالبين السابقين (محمد نعيم العرقسوسي؛ وبسام الجابي)؛ إثر محنة ممضّة أَلَمت بالأستاذ، فاعتزل في بيت حميه؛ وكان السيد محمد نعيم العِرْقسوسي قد حقَّق كتابًا ونشره بعنوان (توضيح المشتبه). وقد وصل الكتاب إلى الأستاذ، فكان سلوته في محنته مع أنه كتاب يضْبط «أسماء رواة الحديث وأَنسابهم وألقابهم وكناهم بالحركات

والحروف؛ لا يقتنيه إلا مُحَدِّث أو مُحَقِّق، ولا يصبر القارئ له إلا على قراءة أسطر كيما يتهدَّى إلى ضَبْط اسم أو نسبة كتاب هو بالمعجم أشبه، تكون فيه سلوة !!.

وفي غمرة دهشتنا رأينا الأستاذ يستلُّ أوراقًا من بين صفحاته، فيها تصحيح ما بدا له من أخطائه، وراح يقدِّمها إلى أخينا نعيم قائلاً باعتذار: الكتاب بحاجة إلى قراءة ثانية متأنية، وهذه الملاحظات هي ما عنَّ لي في أثناء قراءته وأنا بعيد عن مكتبتي»[٧٨].

فالأستاذ – رحمه الله – ترك أثرًا عظيمًا لا يبلى في نفوس الناس، مريدين وغيرهم؛ وتجلَّى علمه وفضله منهجًا وسلوكًا، ومعارف يقدِّمها لهم ولو تكلَّف الإنسان الحديث عن كل ما يعرفه عنه في هذا الجانب لضاق المجال به، وإن تنكَّر له العديد من الناس غير الأسوياء. فقد عرفت فيما عرفت أنه نُكب بأحدهم، أو عدد غير قليل منهم؛ لأنه أخذهم بظنة نفسه الكريمة فخيّبوا ظنه. وهذا ما أشار إليه غير واحد من أصدقائه وطلبته[٧٩].

أما أنا فأدين له بالفضل ما حييت؛ إذ أثره باق في نفسي وحياتي من قبل ومن بعدُ، وربما تتقاطع ملامح تجربتي معه بتجارب أخرى لأصدقاء لازموه في حياته أكثر مني؛ وكان أثره فيهم أعظم؛ بيد أنني سأقصُّ بسرعة بعض ما وقع لي معه.

فقد عرفت الأستاذ في السنة الأولى من الجامعة، فتلقَّيت على يديه علم العروض والمكتبة والأدب القديم؛ ثم كانت السنة الثانية وحظيت بشرف الاطلاع منه على كتاب (الكامل) للمبرِّد. وقد جعله سبيلاً إلى آفاق معرفية ونقدية ولغوية كثيرة، مما كان له أعظم الأثر في نفسي. ولما درَّست في جامعة

قطر مقرر (التراث الأدبي) كان منهج الأستاذ، ومعارفه ركيزة لي في ذلك، فالنّص لم يكن غايته؛ وإنّما هو وسيلة نظر إلى غيره من كتب المصادر التراثية واللغوية ...

ثم كان لي ولزملائي شرف اللقاء معه في السنة الثالثة في مادة علوم اللغة العربية، ولنتقابل هذه المرة مع كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام الأنصاري، وهنا أدركنا مزية الأستاذ، فكان الفارس الذي لا يُشق له غبار، وتناول جملة من القضايا لا يقدر عليها إلا مثله، شرحًا وتفسيرًا، ومناظرة ومعارضة بين ما ورد في المغني وما جاء لدى المتقدمين.

وإذا كان اللقاء قد تقطَّع بيننا في أسابيع قليلة في دبلوم الدراسات العليا فإنَّه لم ينقطع يومًا في مكتبه أو بيته، وكنت دائمًا ألحف بالسؤال وكان دائمًا لا يبخل بالإجابة العلمية الدقيقة، ضمّني إلى نفسه ووسعني بفضله وعلمه.

ومهما أنس لا أنس تلك الأيام التي مرت بي عند تسجيل درجة الدكتوراه؛ فقد مضت الشهور في البحث عن موضوع ما؛ ثم استقر الأمر على اختيار (الحيوان في الشعر الجاهلي)، وتلبَّث الأستاذ عند العنوان، ورغب في تغييره، ليكون أكثر تشويقًا وترغيبًا وجاذبية، من دون أن يختزل أدنى شيء مما اتفق على مادته؛ كأن يتحول إلى (صورة الحيوان...) أو (مشهد الحيوان...) ولما لم تستقم الحال؛ سجّل الموضوع بالعنوان الأسبق، ثم نما البحث بين يديه، حتى استوى على سوقه، ومن ثم طبع قسمان منه، وما يزال الثالث ينتظر، تبعًا لأبواب الرسالة دون أن يتغير منها شيء.

وأخيرًا أقول: إذا كان مريدو الأستاذ وطلبته قد توَّجوه بلقب (علاَّمة الشام) فما خاب ظنُّهم فيه؛ ولا خدعتهم فطرتهم، فقد فتح لهم بوابات المعرفة

في محاضراته وفي مكتبه؛ ثم في بيته، يستقبلهم على كل هيئة وفي كل حين، ولو كان مريضًا، لم يعرف الكَلال والمِلال، فراحتُه في تنوير عقول الأجيال، وإزالة غبار السنين عنها؛ وإنارة عتمة الطريق لها في عصر يسود فيه التزوير الفكري والثقافي، والنفاق الاجتماعي، والرياء.

كان – رحمه الله – ملء العين، ودفء القلب، بل كان صفوة الأصفياء في الخُلق الكريم، والمثل الرفيعة. نشد الكمال وأحبه؛ ومارس الوطنية والتفاني في سبيل الأمة عطاءً وبذلاً فكان المجلي والسابق.

فإذا كان الموت تحفة المقربين إلى الله من أهل الصلاح، فطب نفسًا يا أبا عبد الله؛ فرسمك الذي فارق الدنيا لم يزل باقيًا في قلوب طلبتك وأهل العلم وعقولهم؛ وسيظل علمك مهوى أفئدتهم ذكرى هدي ونور، ولن نَفِيَك حقك مادامت الحياة.

رحمك الله يا سيدي، وأسكنك فسيح جنانه مع من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ...

والحمد لله رب العالمين

الحواشي

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق؛ من كلمة (للأستاذ العالم الفاضل الدكتور شاكر الفحام) مج ٦٧ – ج٣ – ص(٥٢٣– ٥٢٤).

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير (١٩) .

(٣) الشعر والشعراء (٢/ ٧٢٨) والرثاء في الجاهلية والإسلام (١٧٩) .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق؛ من كلمة (للأستاذ الفاضل الإنسان الدكتور عبد الكريم الأشتر) مج ٦٧- ج٣- ص(٥٤٤- ٥٤٥).

(٥) المرجع السابق ص(٥٤١- ٥٤٢).

(٦) مجلة الفيصل ص(١٠٦) العدد ٢٩٥؛ من مقال للأستاذ (إبراهيم عمر الزيبق) أمين قاعة الباحثين في المكتبة الظاهرية.

(٧) رسالة الغفران ٣٦٦؛ والبيت مؤلف من بيتين هما السابع والتاسع في ديوان النابغة ص(١٥٤ و١٥٥)، على اختلاف في رواية بعض الألفاظ، ويقول فيهما :

كما لقيَتْ ذات الصَّفَا من حَليفها وما انفكّت الأمثال في الناس سائرَهْ

فواثقها بالله حين تراضيا فكانت تَدِيْه المال غِبّا وظاهِرَهْ

(٨) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – (باب التعريف والنقد) مج٣٣- ج١- ص(١٥١).

(٩) المرجع السابق مج٣٢- ج٤- ص(٦٨٦).

(١٠) المرجع السابق – مقال (نظرات في نظرات) – مج٦٧- ج٣- ص٥٨٧.

(١١) المرجع السابق – من كلمة للأستاذ المفكر المرحوم (عبد الهادي هاشم) في حفل استقبال الأستاذ النفاخ – مج٥٣- ج١- ص(٢١٤).

(١٢) المرجع السابق – على ترتيب المقبوسات – مج٦٧- ج٣- ص(٥٢٦- ٥٢٧ و٥٢٨- ٥٢٩).

(١٣) المرجع السابق – مج ٦٧- ج٣- ص(٥٣٧).

(١٤) المرجع السابق – مج ٣٢- ج٤- ص(٦٨٥).

(١٥) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٥٤- ج١- ص(٢٤٠)؛ وقد أثبتُّ فحواها وجزءًا منها؛ وانظر شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (ص٣).

(١٦) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٦٧- ج٣ ص(٥٣٨ و٥٤٠) (على ترتيب المقبوسين المذكورين)؛ والحديث في (الجامع الصغير ١/ ٢٥٠ برقم ١٨٦١).

(١٧) انظر المرجع السابق – مج٦٧– ج٣– ص(٥٢٤– ٥٢٥) فيما قاله الأستاذ الدكتور شاكر الفحام؛ وص(٥٤٥) فيما قاله الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر؛ وانظر ما يأتي (ص١٩) حاشية (٥٤)، أما كلمة الأستاذ الدكتور إحسان النّص فقد ألقاها إلي في جلسة بمكتبه في مجمع اللغة العربية يوم الثلاثاء ٤/ ٦/ ٢٠٠٢م.

(١٨) انظر الكلمات التي قيلت في حفل استقباله، (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق– مج٥٣– ج٣– ص(٢٠٨ وبعد)، والكلمات التي قيلت في حفل تأبينه – (المرجع نفسه: مج٦٧– ج٣– ص(٥٢٢ وبعد–) وانظر المرسوم التشريعي لتعيينه، في (المرجع نفسه): (مج٥٢–ج١– ص٢٤١)؛ وانظر فيه (مج٥٩– ج٢– ص٤٣٢– ٤٣٣ ومج٦٣– ج٣ ص٥٤٧– ومج٦٥– ج٣– ص٣٤٦) حول مهمات تكليفه باللجان.

(١٩ و٢٠) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٦٧– ج٣– ص(٥٢٣و ٥٢٥) ثم (٥٢٨) ومج ٥٣– ج١– ص(٢٢١).

(٢١) المرجع السابق – مج٦٧– ج٣– ص(٥٥٤).

(٢٢) مجلة الفيصل – ص(١٠٥) العدد ٢٩٥.

(٢٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٥٣ – ج١– ص(٢١٣).

(٢٤) المرجع السابق – مج٦٧– ج٣ ص(٥٢٥– ٥٢٦) ومج٥٣– ج١– ص(٢١٤).

(٢٥ و٢٦ و٢٧) المرجع السابق – (وعلى الترتيب) مج٦٧– ج٣ ص(٥٤١) – ومج٦٧– ج٢– ص(٣٥١ و٣٥٣).

(٢٨ و٢٩ و٣٠) المرجع السابق – (وعلى الترتيب) – مج٥٩– ج٣ – ص(٦١٥)؛ ومج٣٣– ج١– ص(١٤٧)، ومج٦٧– ج٣– ص(٥٤٥).

(٣١) مجلة الفيصل – ص(١٠٦) العدد ٢٩٥.

(٣٢) الأغاني (١٧/ ١٧٩ و١٨٠ و١٨٣).

(٣٣) التصوف في الإسلام (٤٨) .

(٣٤ و٣٥ و٣٦) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – (وعلى الترتيب) – مج٦٧– ج٣ – ص(٥٤٦)؛ ومج٦٧– ج٢ – ص(٣٥١)، ومج٦٧– ج٣– ص(٥٤٥).

(٣٧) ديوان العباس بن مرداس السلمي (١٧٣).

(٣٨ و٣٩ و٤٠) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - (وعلى الترتيب) - مج٦٧ -ج٢ - ص(٣٥١)؛ ومج٥٣- ج١- ص(٢٠٩- ٢١٠)، (وانظر ما يأتي حاشية ٦٠)، ومج٣٣- ج١ - ص(١٤٨).

(٤١) اعتمدنا على ما أورده الأستاذ الدكتور شاكر الفحام ومن ثم زدنا فيه بعض الآراء؛ انظر المرجع السابق (مج٦٧- ج٣ - ص(٥٣٤ - ٥٣٦) .

(٤٢) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مج٦٧ - ج٣ - ص(٥٤٣) .

(٤٣) انظر مختارات من الأدب الجاهلي (١٧٢- ٢١٥) وقد صرَّح المؤلف بذلك .

(٤٤ و٤٥ ثم ٤٦) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (وعلى الترتيب) - مج٦٧ - ج٣ - ص(٥٣٢)؛ ومج٤٧ - ج١ ص(٩٢ - ١٣٠).

(٤٧ و٤٨) انظر مقدمة شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف - (وعلى الترتيب) ٣- ٨ و٦.

(٤٩ و٥٠) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مقالات للأستاذ النفاخ) - مج٦٧ - ج٣ - ص٥٣١)؛ ومج٥٧ - ج٣ - ص(٤٨٤).

(٥١) انظر المرجع السابق - مج٥٣ - ج١ - ص(٢١٣- ٢١٤)، ومج٦٧ - ج٧ - ص(٥٢٨)؛ وديوان الردة ص(٥ - ٦)، إذ أهدى د. علي العتوم كتابه إلى الأستاذ، وقَرَّظه، وانظر حاشية (٤٣).

(٥٢ و٥٣ ثم ٥٤) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (وعلى الترتيب) - مج٦٧ - ج٣ - ص(٥٢٨)؛ وص(٥٢٥) وراجع حاشية (١٧).

(٥٥) هناك غير ما لقاء جرى مع الأستاذ في مكتبه بمجمع اللغة العربية وكان يؤكِّد ذلك تباعًا.

(٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مج٥٣ -ج١ - ص(٢١٩)؛ ومج٣٢ - ج٤ - ص(٦٨٥- ٦٨٦)؛ ومج٣٣ - ج١ - ص(١٥٤)؛ ومج٥٩ - ج٣ ص(٥٨٧)؛ وانظر ما ورد في (مج٦٧ - ج٣ - ص(٥٣١) .

(٦٠) راجع حاشية (٣٩) مما تقدم .

(٦١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – مج٦٧ – ج٣ – ص(٥٤٠).

(٦٢) كتاب القوافي – للأخفش – ص(٦).

(٦٣ و٦٤) انظر المرجع الأسبق (وعلى الترتيب) مج٦٧ – ج٣ – ص(٥٣٨) ومج٥٩ – ج٣ – ص(٥٨٧ و٦١٦ – ٦١٧).

(٦٥) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف – ص(٦) .

(٦٦ و٦٧ و٦٨) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (وعلى الترتيب) – مج ٥٣ – ج١ – ص(٢١٦)؛ ومج٥٩ – ج٣ – ص(٥٨٨- ٥٨٩ و٦١٤ و٦١٥).

(٦٩) انظر خبر (حميدة بنت النعمان) مفصلاً في (الأغاني ٩/ ٢٢٧ وبعد) وروي فيه البيت:

وهل أنا إلا مُهْرةٌ عربيَّة ... سليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بَغْلُ

(٧٠) مختارات من الشعر الجاهلي – ص(٥) .

(٧١ و٧٢ و٧٣ و٧٤) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (وعلى الترتيب) مج٥٣ – ج١ – ص(٢١٣) ومج٦٧ – ج٣ – ص٥٢٦ – ٥٢٧) و(٥٣٩ و٥٥٥ و٥٢٨)، وراجع حاشية (٧٩) مما يأتي، وانظر ديوان الردة – ص(٥ – ٦).

(٧٥) انظر مضمون الحاشية (٧٣ و٧٤) في موضعه؛ وديوان الردة – ص(٥ – ٦).

(٧٦) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج٦٧- ج٣- ص (٥٥٥- ٥٥٦)، وص (٥٥٣- ٥٥٤) .

(٧٧ و٧٨) انظر في ذلك كله مجلة الفيصل ص(١٠٣ – ١٠٤ ثم ١٠٥ – ١٠٦).

(٧٩) انظر المرجع الأسبق – (٥٤٣) إذ حدَّثنا الدكتور الأشتر عن الناسك المتبتل الذي تعرَّض لمحن قاسية باندحار المثل النبيلة والظن بالناس أنهم أهل للثقة كشخصه؛ ((فهذا الذي كان يجعل منه هدفًا سهلاً للطامعين فيه. كانت أبواب بيته مفتوحة لكل طارق؛ حتى ربما سلَّم لِبعضهم مفاتيحَها ليدخلوه إذا غاب عنه)) . ثم يبيِّن الأخ الصديق الدكتور الدالي (ص٥٥٤) حقيقة بعض من وثق بهم ولكنه نُكب فيهم فقال: ((وعرفت فيما عرفت أنه كان منكوبًا في غير قليل ممن أحسن إليهم، ما فعل لهم إلا الخير، وضنّوا بالوفاء، بل إن فيهم من أساء إليه، وتنكَّر له، ومنهم من

أصاب به اليوم علاج ذات نفسه ... كان وفيًّا يُحسن الظن بالناس فيخلفه ظنه في كثير ... وأقامت طائفة على الوفاء له» .

المصادر والمراجع

١- الأغاني- لأبي الفرج الأصفهاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - نسخة مصورة عن (طبعة دار الكتب: ١- ١٦) وعن (الهيئة المصرية العامة: ١٧ -٢٤).

٢- التصوف في الإسلام - موفق فوزي الجبر- دار معد ودار النمير - دمشق- ط١ - ٢٠٠٠م.

٣- الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار خدمات القرآن بالأزهر .

٤- ديوان ابن الدمينة - صنعة ثعلب وابن حبيب - تحقيق أحمد راتب النفاخ - دار العروبة - القاهرة - ١٩٥٩م.

٥- ديوان الردة - د. علي العتوم - مكتبة الرسالة الحديثة - عمان/ الأردن - ط١ - ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٦- ديوان العباس بن مرداس السلمي - تحقيق د. يحيى الجبوري - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ - ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٧- ديوان النابغة الذبياني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر- ١٩٧٧م.

٨- الرثاء في الجاهلية والإسلام - د. حسين جمعة - دار معد - دمشق - ١٩٩١م.

٩- رسالة الغفران - للمعري - تحقيق د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - دار المعارف بمصر - ط٨ - ١٩٩٠م.

١٠- شرح ديوان كعب بن زهير - صنعة االسكري - نشر دار القومية للطباعة - القاهرة - ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

١١– شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف – لأبي أحمد العسكري – تحقيق د. السيد محمد يوسف – مراجعة الأستاذ أحمد راتب النفاخ – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق – ط١ – ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٢– الشعر والشعراء – لابن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر – دار المعارف بمصر – ١٩٦٦م.

١٣– كتاب القوافي – لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش – تحقيق أحمد راتب النفاخ – دار الأمانة – بيروت – ط١ – ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

١٤– كتاب القوافي – لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش – عُني بتحقيقه د. عزة حسن – وزارة الثقافة – دمشق – ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٥– مجلة الفيصل – العدد (٢٩٥) – محرم ١٤٢٢هـ/ مارس/ إبريل ٢٠٠١م.

١٦– مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلدات والأجزاء) كما هو مبيَّن فيما يأتي:

١– مج٣٢– ج٤– ص(٦٨٥) وبعد – لعام ١٩٥٧م (رسالة الغفران) .

٢– مج٣٣ – ج١– ص(١٤٦) وبعد – لعام ١٩٥٨م (رسالة الغفران) .

٣– مج٤٢ – ج٤ – ص(٧٥٨) وبعد – لعام ١٩٦٧م (المحتسب لابن جني).

٤– مج٤٣ (–ج١– ص(٧٩) وبعد/ وج٢– ص(٣٦٩) لعام ١٩٦٨م (المحتسب لابن جني).

٥– مج ٤٧– ج١– ص(٩٢) وبعد – لعام ١٩٧٢م (كتاب القوافي للأخفش).
وج٤ – ص(٨٦٣) وبعد – لعام ١٩٧٢م (تعقيب على أرجوزة في العروض).

٦– مج٤٨ – ج٤ – ص(٨٤٠) وبعد لعام ١٩٧٣م (كتاب إعراب القرآن للزجَّاج).

٧– مج٤٩ – ج١ – ص(٩٣) وبعد – لعام ١٩٧٤م (كتاب إعراب القرآن للزجَّاج).

٨– مج٥٢ – ج١– ص(٢٤١) لعام ١٩٧٧م (مرسوم تعيينه عضوًا بالمجمع).

٩– مج٥٣ – ج١ – ص(٢٠٨) وبعد لعام ١٩٧٨م (حفل استقباله)

١٠– مج٥٤ – ج١ – ص(٢٤٠) وبعد – لعام ١٩٧٩م (عبد العزيز الميمني الراجكوتي).

١١– مج٥٧ – ج٣ – ص(٤٧٢) – لعام ١٩٨٢م (حركة عين المضارع من فَعَل).

١٢- مج٥٨ - ج٤ - ص(٦٥٧) وبعد - ١٩٨٣م (كتاب المحبة لله سبحانه).
١٣- مج٥٩ - ج٢ - ص(٢٤٥) وج٣- ص(٤٦٣)- ١٩٨٤م (كتاب المحبة لله).
١٤- مج٥٩ - ج٣ - ص(٥٨٧) وبعد - ١٩٨٤م (نظرات في نظرات).
١٥- مج٦٠ - ج٢ - وج٣ - لعام ١٩٨٥م (نظرات في نظرات).
١٦- مج٦٠ - ج٣ - لعام ١٩٨٥ (فقيد المجمع الأستاذ عبد الكريم زهور عدي).
١٧- مج٦٠ - ج٤ - لعام ١٩٨٥ (استفتاء وجوابه).
١٨- مج٦٣- ج١- ص (٥٤٧) وج٣ - (٥٨٧)- ١٩٨٤م (قرارات للمجمع بشأن الأستاذ).
١٩- مج٦٥ - ج٣ - ص(٣٤٦) وبعد - ١٩٩٠م (قرارات للمجمع بشأن الأستاذ).
٢٠- مج٦٦ -ج٤- ١٩٩١م (تعليقات على أشعار اللصوص وأخبارهم).
٢١- مج٦٧- ج٢ - ص٣٤٩ - (انتخاب الأستاذ النفاخ في بعض اللجان) . وص (٣٥١) - (الأستاذ أحمد راتب النفاخ في ذمة الله). - وج٣ -(٥٢٢)- لعام ١٩٩٢م - (حفل تأبين فقيد المجمع الأستاذ أحمد راتب النفاخ) .

١٧- مختارات من الأدب الجاهلي - د. عبد الحفيظ السطلي - مطبوعات جامعة دمشق - دمشق - ط٥ - ١٩٩١ - ١٩٩٢م.

١٨- مختارات من الشعر الجاهلي - اختارها وعلّق عليها أحمد راتب النفاخ - مكتبة دار الفتح - دمشق- ط١ - ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.